

طه حسين

حلم الربيع والصيف

منندي مكتبة الاسكندرية

زار العالم للمطبعين - بيروت

طهّين

حِلَّةُ الرَّبِيعِ وَالصَّيْفِ

دَارُ الْعِلْمِ لِلتَّالِيفِ
بَغْدَادُ

بيروت ، تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٥٧

رحلة الربيع

وقفت السيارة عند أصل القلعة ، وفي الوقت نفسه أقفلت السماء ، وسكت الغيث ، وأقبلت أشعة هادئة فاترة تنبئ السحاب في رفق عذب بأن الشمس تريد أن تزور مشرق الحكمة ، فينقشع السحاب خفيفاً رقيقاً ، وتقبل الشمس في أناة ووقار وجلال فتغمر القلعة بنورها كأنما تضمها إليها في حب وحنان . ونصعد نحن في أثناء ذلك وقد استعصرنا عقلنا كله وحسنا كله وشعورنا كله فقطعنا كل ما كان بيننا وبين العالم من صلة وأخلصنا نفوسنا للقلعة نريد أن نلتهمها حباً لها وإعجاباً بها وفناء فيها .

وقضينا في القلعة ساعتين عشنا فيهما ثلاثة قرون كاملة ، فاعجب إن شئت لثلاث مائة سنة تختصر في ساعتين ، فهذه خصلة خص بها الإنسان تتيح له أن يختصر الزمان إن شاء أن يختصره ، وأن يتجاوز الزمان إن أراد أن يتجاوزه ، وأن يخلص الماضي أو لقطعة من الماضي إن أحب أن يخلص لها ، وأن يعضي في المستقبل إلى غير غاية وعلى غير هدى ، وأن يقف في الحاضر

لا يعدوه إلى أمام ولا إلى وراء ، وأن يجمع إن شاء بين هذا كله فيفرق نفسه تفريقاً . وقد تركنا المستقبل لمن بيده المستقبل ، وتركنا الحاضر للذين يشغلون بالحاضر ، وألغينا من الماضي ثلاثة وعشرين قرناً ، وأهملنا من الماضي قروناً أخرى لا تحصى سبقت هذا العصر الذي اخترناه ووقفنا عليه هاتين الساعتين ، وألغينا من آمام المسكان مثل ما ألغينا من آمام الزمان ، فتركنا الأرض القرية والبعيدة ، وتركنا البحر والمحيط ، وتركنا الجو الذي يغمر البر والبحر ، ووقفنا عقلنا وشعورنا وحسنا على هذه القطعة الصغيرة من الأرض في هذه القطعة الصغيرة من الدهر . وجعلنا نسعى مبطين مترفين ، ونقف متأملين متفكرين بين هذه الاطلال اليونانية لا نعرف غيرها ولا تكاد هي تعترف غرنا ، فقد سبقنا إليها أهل السفينة جميعاً وبلغناها قبل أن يبلغها أحد فخلونا إليها وخلت إلينا ، وقلنا لها وقالت لنا ، وملأنا منها قلوبنا وانصرفنا عنها وقد ملأت علينا آفاق الأرض والسماء ، فذكرناها وسندكرها ما امتدت لنا أسباب الحياة ، ونسينا هي وستنسنا كما نسيت أجيالاً كثيرة وكما ستنسى أجيالاً كثيرة ما امتدت لها أسباب البقاء . وكان السذين يكتنفوني من الأهل والرفاق يسعون من حولي ، وقد أخذت أبصارهم وسحرت عقولهم واستهويت قلوبهم ، وجعلت أفواههم وألسنتهم تنقل إليّ بعض ما يجدون بهذه الآهات الطويلة المتصلة وهذه الألفاظ القليلة المنقطعة التي ينطق بها المبهورون المسحورون حين يأخذ الإعجاب عليهم طريق الإبانة والإفصاح . وكنت

أسمع لهم بإحدى أذني أو بجزء يسير من إحدى أذني ، أعرض عنهم بعقلي كله وقلبي كله وضميري كله . أتركهم لما يرون وأفترغ لما أجد ، وما أكثر ما كنت أجد ! وما أشد اختلاف ما كنت أجد ! فليس بالقليل على الإنسان المحدود أن يعيش في هذه القرون الثلاثة ، فيشهد نشأة العقل ونمو الفن وحياة الشعور ويقظة ضمير ، ويرى طريق الحضارة والرفي ترسم للأجيال وتقام فيها الأعلام تدفع إليها الإنسانية دفعا ، ويقال لها هذه هي الطريق التي ستسلكونها راضية أو كارهة ، راغبة أو راغبة ، لا تخرجين منها ولا تتحولين عنهما مهما تلقى فيها من الخير والشر ومهما يعترضك فيها من النعيم والبؤس ، حتى يرث الله الأرض ومن عليها ، وحتى تطوى السماء كطي السجل للكتاب .

ففي هذه القرون الثلاثة وفي هذه القطعة الضيقة من الأرض التي يحيط بها الطرف في أيسر الجهد وبطوف بها الإنسان في أقصر الوقت ، عرف الإنسان أن له عقلاً وشعوراً وضميراً . وإن له من أجل ذلك حقاً في أن يكون حراً كريماً وأن عليه من أجل ذلك واجباً أن يرعى لنظرائه حقهم في الحرية والكرامة والامتناع على الضمير .

في هذه القرون الثلاثة من الدهر وفي هذه الرقعة الضيقة من الأرض ، نشأت الديمقراطية ، فعرف الإنسان أن سلطان الحاكم لا ينتزّل من السماء وإنما يخرج من الأرض ، وأن بين الحاكم والمحكوم عقداً اجتماعياً تصدره القوانين المكتوبة والدساتير التي تنقش في القلوب أولاً ثم تكتب في الصحف

بعد ذلك :

وعرفت الإنسانية أن الناس سواء أمام القانون لا يمتاز منهم فرد من فرد ولا تتفوق منهم طبقة على طبقة ، ولا يتفاوتون فيما بينهم إلا بالعمل الصالح والبلاء الحسن ، واستطاع سولون أن يتغنى في شعره الرائع بأنه حرر الأرض فلم تصبح وقفاً على فريق من الناس دون فريق .

في هذه القرون الثلاثة من المدهر وفي هذه الرقعة الضيقة من الأرض نظمت القوانين ما يكون من الصلات بين الحاكمين والمحكومين ، وردت القوانين إلى الشعب أمور الشعب ، وجعلت القوانين حكام الشعب خدماً للشعب ، وفرضت القوانين على حكام الشعب أن يؤديوا إلى الشعب حساباً دقيقاً عما نهضوا به من المناصب ، وما استقلوا به من الأعباء ، وما قاموا به من الأعمال .

في هذه القرون الثلاثة من الدهر ، وفي هذه الرقعة الضيقة من الأرض ، نما الفن الرائع ، وزهوا الشعر البارع ، وأزهى الأدب الرفيع ، وطوف سقراط بفلسفته في الشوارع والأزقة ، يعلم الناس وهو يحاورهم أن عليهم أن يعرفوا أنفسهم وأن يثقفوها وأن يهذبوها وأن يرفعوها من الصفو والعفو إلى حيث تطهر من دنس المنافع الوضيعة وتبرأ من أوضار الحياة الخسيسة وتعيش في جو من الفضيلة لا تجسد الرذيلة إليه سبيلاً . ويعلم الناس وهو يحاورهم أن للإنسان ضميراً حراً ليس لأحد سلطان عليه ولا ينبغي أن يكون موضوعاً للمساومة ولا سلعة تعرض للتجارة ،

وأن حرية الضمير وحرية التفكير وحرية التعبير هي التي تجعل الإنسان إنساناً . فلما امتحن سقراط في فلسفته هذه صبر للمحنة وثبت للفتنة . وعلم تلاميذه وهو يحاورهم كيف يستقبل الإنسان الحر إلام الخطب حين يلم ، وزيارة الموت حين يزور مهتماً للخطب لأنه زائل ، وساخرأ من الموت لأنه عارض من ورائه الخلود . وفي هذا الوقت نفسه كان سوفوكلس ينطق أنتيجونا في ملعب التمثيل بأن هناك قوانين خالدة وجدت قبل الانسان وستوجد بعد الانسان وهي قوام الخلق وملاك العقل ، فليس لاحد عليها سلطان وليس للمخلوق على الناس طاعة إن خالف عن هذه القوانين .

نعم ! في هذه القرون الثلاثة من الدهر وفي هذه الرقعة الضيقة من الأرض ، عرف الانسان عقله وقلبه وضميره ، ورسمت له فلسفة سقراط وأفلاطون وأرسطاطاليس مناهج التفكير والشعور والسيرة ، وشقت له طريق الرقي ، وعلمته الطموح إلى الكمال والارتفاع عن النقص والتزهر عما يشين .

في هذا كله وفي أكثر من هذا كله كنت أذكر ونحن نسعى في هذه الاطلال اليونانية مستحضراً تلك الحقبة من الدهر متمثلاً ما كان فيها من خير كثير وشر كثير ، وما كان فيها من صراع بين الحق والباطل ، وما كان فيها من اختصام بين العدل والجور ، وما كان فيها من جهاد بين الرفعة والضعفة ، وما كان فيها من ثورة على باطل الحياة وزخرفها ومن سمو إلى المثل العليا . وكنت أسمع خطباء الآتينيين ينافح بعضهم عن الحق ناصحاً

ويعوه بعضهم على الجماهير مضللاً . وكنت أشهد ملاعب التمثيل وأرى أصحاب المأساة يرفعون الإنسان إلى صف الآلهة وأصحاب الملهاة يضعون الإنسان إلى منزلة الحيوان . وكنت أسمع حوار سقراط وأرقى مع أفلاطون إلى ملكه الأعلى ، وأعود مع أرسطاطاليس إلى بحثه المتواضع الرفيع ، وأشهد الأحداث الكبرى تحدث بعيداً عن أتيننا وتحدث قريباً من أتيننا وتحدث في قلب أتيننا ، وأرى جماعة الشعب تحاور في هذا كله وتقضي في هذا كله تصيب حيناً وتخطئ أحياناً ، ولكنها مستمسكة دائماً بحقها في السيادة والسلطان والاستتار بتدبير أمرها من دون الطغاة . وكنت قد تركت في مصر شراً ونكراً وإثمًا ، وخرجت وفي نفسي شيء من شرها وتكرها وإثمها ، فلما بلغت أصل القلعة جعلت أرقى فيها قليلاً قليلاً ، وأتنفس من هوائها ذلك العذب ، وأتنسم من غيرها ذلك الأرج وأعيش في تاريخها ذلك الرائع ، احسنت كأن شيئاً ما علق بنفسي من الشر والنكر والإثم قد جعل يزول عنها شيئاً فشيئاً ، وكأن نفسي قد جعلت تتخفف من عبء باهظ وثقل ثقل ، حتى إذا بلغت البارتنون وجسدتني خفيف النفس نظيف القلب صحيح العقل نقي الضمير ، وإذا أنا أدعو إلي شعراء المأساة والملهاة ، وأدعو إلي رواة القصص وكتاب التاريخ ، وأدعو إلي سقراط ومخاوريه وأفلاطون ومناظريه وأرسطاطاليس وتلاميذه ، وأبرأ اليهم جميعاً من الشر والنكر والإثم وأشهدهم جميعاً على أنني قد وفيت لملهم العليا . فلم أنقض عهداً ، ولم أضع ودّاً ، ولم أحن صديقاً ، ولم أغدر خليلًا ، ولم

أشتر الراحة والدعة واللين بثمن بخس دراهم ودنانير تعد أو لا
تعد . وإذا أنا اعاهدكم على أنني سأنفق ما بقي لي من الحياة كما
أنفقت ما مضى عني من الحياة وفيما للحق حقيقاً بالفضيلة مرفعاً عما
بخس الرجل ويندي بالمروءة ، متبرئاً من خيانة الأصدقاء والغدر
بالأخلاء وبيع الضمير بالمال القليل أو الكثير .

وأنا في ذلك وإذا زوجي تهتف بي : أين أنت ! ألا تسمع
لما يقال من حولك ؟ فأعود إليها مرفقاً مبتسماً ، واعتذر اليها
في سذاجة بأنني كنت أعيش في القرن الخامس والرابع قبل
المسيح . فسالت وتضاحكت وتضاحك من حولنا : فعد إلى
القرن العشرين بعد المسيح ، واهبط معنا إلى حيث يعيش الناس
في المدينة الحية ، فقد يجيل اليّ أنك أنسييت قهوة الضحى ؟

ونهبط متمهلين مترفين نسعى قليلاً لنقف كثيراً ، والرفاق
من حولي يمدون أبصارهم إلى هذه الناحية أو تلك ليروا هذا
المشهد أو ذاك من مشاهد الحكمة والفلسفة والأدب والفن
والتاريخ . يمدون أبصارهم في هذه الناحية ليروا قمة البارناس
ويمدون أبصارهم في تلك الناحية ليروا صخرة سلاميس .
فعلى قمة البارناس تجلت روعة أبولون فملأت الأرض جمالاً
ونوراً . وعند صخرة سلاميس تحطم اسطول الملك الأعظم
فانتصرت قوة العقل على قوة الملك وسعة السلطان . ولا يكاد
الرفاق يردون أبصارهم بعد أن مدوها حتى تقف بها الطريق
فتتعلق بهذا الأثر أو ذاك من هذه الآثار القرية التي وقفوا عندها
فأطالوا الوقوف ، ولكنهم لا يستطيعون أن ينصرفوا عنها ، وقد
علقت بها نفوسهم فلا يستطيعون لها استخلاصاً إلا في كثير من
الجهود الشاق العنيف كأنها قطع الحرير قد علقت بالشوك ، فلا بد
من الحيلة الدقيقة الرفيقة لاستخلاصها منه دون أن يلحقها البلى .
وربما انحنى الرفاق فجأة إلى الأرض لا يحاولون ركوعاً ولا سجوداً ،

وانما دعوتهم هذه الزهرات النضرات من زهر العشب الذي ينبت
في أعقاب الغيث بين ما تشقق من الصخور . وأنا بين الرفاق ساهم
واجم أسعى متعثراً وأقف حيران وجلا أود لو طال الوقوف
فأزود من عبر عرار نجد ، فما بعد هذا الضحى من عرار ،
وانغى في نفسي بسينة البحري :

صنت نفسي عما يدنس نفسي

وترفعت عن جسدا كل جيس

ولكني أضع « يونان » مكان « ساسان » وتمغنى نفسي الكثيب
بيت البحري على هذا النحو :

أتسلى عن الخطوب وآسى لمحل من آل يونان درس
وقد ارتفع الضحى وأوشك النهار أن يتصف حين هبطنا
من المدينة العليا مدينة الموتى والآلهة ، إلى المدينة السفلى
مدينة الأحياء والمنافع وما تجر المنافع على الناس من الأرزاء
والكوارث والخطوب . وهؤلاء رفاقي قد ردوا نفوسهم
العاقلة الشاعرة إلى أماكنها الخفية القصية من أعماق الضمائر ،
واستردوا نفوسهم المفكرة المدبرة ، واستقبلوا الحياة اليومية
كما يستقبلها غيرهم من الناس ، فجعلوا ينظرون إلى دور
التجارة وما يعرض فيها للبيع والشراء . وجعلوا ينظرون
إلى الذهبين والأيين يتوسمون في وجوههم وفي أشكالهم
وصورهم ، ليتبينوا مظاهر النعيم عند قوم ومظاهر البؤس عند
قوم آخرين ، ويستخلصوا لأنفسهم رأياً عن حياة اليونان المحدثين
في مدينتهم الخالدة . فما أكثر ما فرأوا وما أكثر ما سمعوا عن

حياة اليونان في بلادهم ! قوم يقولون إنها بلغت من البؤس أقصاه ، وقوم يقولون إنها بلغت من النعيم أقصاه ، وقوم يقولون إن اليونان كغيرهم من الناس قد لعبت بهم تلك الإلهة للعمياء التي تسمى المصادفة ، فأعطت بغير حساب وحرمت بغير حساب . وأمسكت بعض الناس في نعم ناعم ، وأمسكت بعضهم الآخر في بؤس بائس ، وتركت فريقاً ثالثاً يترددون بين السعادة والشقاء ، يدعون فلا يسمع لدعائهم أحداً ، وعلمون أكفهم إلى المصادفة فتلقى فيها الشيء بعد الشيء عوردها أصفاراً في أكثر الأحيان ، فهم ينفقون حياتهم في أمل متصل وانتظار خائب ، لا يستيشسون فيرجحهم اليأس ، ولا يظفرون فيرجحهم الظفر ، ولكنهم معلقون بين اليأس والرجاء ، تبحث بهم رياح الحياة الهوجاء عبثاً مضيئاً ملحاً لا يربح منه إلا الموت .

وقد بلغنا قهوة من قهوات أتينا فنقبل عليها مكدودين ، ويتلقانا خادمها باسم الثغر مشرق الوجه يعرض علينا ما عنده في يونانية فصيحة ، فإذا لم نفهم عنه عرض علينا ما عنده فسي فرنسية متعثرة ، وإذا هو يعرض علينا خير ما تعرض القهوات على الناس في سلاط الترف والرخاء . وما نكاد نجلس إلى قهوتنا ونقبل على قليل من طعام حتى ننظر فإذا المعوزون والمعدمون يساقطون علينا من كل وجه ويأخذوننا من كل نحو ، كلهم جائع يريد أن يطعم ، وكلهم محروم يريد أن يعطى ، وكلهم قد ظهر في وجهه البؤس وألح عليه الضرر ، وإذا قهوتنا منغصة وطعامنا ليتا بغيض ، وإذا نحن ننهض مثقلين نريد أن نفر بأنفسنا

من هذه المدينة التي اختلط فيها البؤس والنعيم وامتزجت فيهما
للضراء والسرء ، وسعد بعض أهلها حتى ضاقوا بالسعادة ، وشقي
بعض أهلها حتى ضاق بهم الشقاء .

وقد فاجأنا في هذه المدينة بل فاجأنا قبل ان نهبط من
السفينة ظاهرة كنا نسمع عنها ولا نحققها ، فالدرهم اليوناني
قد أصبح وهماً من الأوهام ، لا يكاد عقل يحقق منه صورة
واضحة . ويكفي أن تعلم أن المليم المصري يعدل ثمانية وعشرين
درهماً يونانياً ، وأن القرش المصري يعدل ثمانين ومائتي درهم
يوناني ، وأن الجنيه المصري يعدل ثمانية وعشرين ألف درهم
يوناني ، واننا لم نقم عن قهوتنا حتى طلب الينا الخادم سبعة عشر
ألف درهم ، ولم نزل من سيارتنا حتى طلب الينا السائق سبعين
ألف درهم ، واشترينا صحيفة ضئيلة نخيلة تصدر بالفرنسية
فدفعنا ثمنها خمسمائة درهم ، وعسدنا إلى أماكننا من السفينة وقد
أنفقنا في صباحنا بسن هذه الألوف الموثقة أقل من ثلاثة جنيهات ؛
فانظر إلى هذه الأرقام تملأ الأفواه والآذان وتروع العقل
والخيال ، حتى إذا أحصيت وحقت لم تتكشف إلا عن أيسر
للبسر وأقل القليل . وكذلك حياة اليونان في أيسر ما ظهر لنا
أثناء هذه الساعات القصار : ألفاظ ضخمة تملأ الأفواه والآذان
وتروق للعقل والخيال ، تم تتكشف آخر الأمر عن غير طائل
ولا غناء . وإنما هو الجو الذي عاش فيه اليونان فيه دائماً ، جو
البغض الكثير والحب القليل ، والصراع المهلك بين الإخوة لا
يحفل بشيء ولا يبقى على شيء ولا يتخرج من شيء ولا يكره

لاستعانة بالأجنبي على الأخ الشقيق والخليل الصديق .
كذلك عاش اليونان في عصورهم القديمة ، فانقسم أهل أتيننا
بين المتعصبين لاسبرتا والمتعصبين للفرس ، وبين المتعصبين لاسبرتا
والمتعصبين لمقدونيا . وهم ينقسمون الآن بين المتعصبين للشيوعية
الروسية والمتعصبين لرأس المال الأمريكي البريطاني . وأولئك
وهؤلاء يتسابقون بالألقاب ويتقاذفون التهم ويتداعون بالإثم
والإجرام ويسلر بعضهم دم بعض ، حتى إذا جدد الجدد وأقبلت
الكوارث الجسام رأيت الشعب اليوناني قد ثاب إلى وحدة
موقوتة ولكنها رائعة تفعل الأفاعيل وتأتي بالأعاجيب . وهو
حين يتفق وحين يفترق وحين يألف وحين يختلف وحين يتظاهر
وحين يتآمر موطن مخضب العقل والقلب والضمير ، قد امتلأت
نفسه خيراً حتى أفاضت الخير من حولها ، وامتلأت نفسه شراً
حتى أفاضت الشر من حولها ، وأتاحت للحكماء والفلاسفة أن
يتفكروا ويتدبروا ويملاؤوا الأرض حكمة وعلماً ونوراً .

وقد صعدنا إلى السفينة بعد أن انتصف النهار وقد غنيت
قلوبنا بما شهدت من روعة القديم اليوناني وعبرة الحديث
اليوناني . ونحن ننفق في السفينة ساعات مضطرب في أمورنا كما
نعودنا أن نفعل وكما تعود السفر أن يفعلوا ، وأنا أريد أن استرد
نفسي فلا أجد إلى ذلك سبيلاً . وقد أخذ صاحبي كتابه وجعل
يقرأ فيه وجعلت اسمع له بأذني وأعرض عنه بعقلي وقلبي .
ولكن ماذا ؟ إن شيئاً يحدث فإذا أنا أعود إلى نفسي فجاءة لا
لأبقى معها بل لأشغل عنها بعد قليل . فهذا الجو قد امتلأ من

حولي نغمًا كأروع ما يكون النغم يحمله « الراديو » من أتبنا
ليملأ به السفينة ويسعى معها في البحر . وأنا أعرف هذا النغم
وآل نفسه وتصبو إليه نفسي ، وأخلو إليه في القاهرة حين
وجين ، فيضع عن نفسي ما يثقلها من الإصر وما يكون عليها
من الأغلال ، ويردها إلى ما أحب لها من النقاء والصفاء ، والترفع
عن الصغائر والدنيات . إنه لحن يتهوّن الذي يسمى لحن
الإمبراطور . لقد أقبل عليّ فأقبلت عليه ، ولقد غمر نفسي
بنور لا يشبه إلا النور الذي غمرها في الضحى حين كنت في
القلعة الآتنية الخالدة . جمال الآثار اليونانية يملأ النفس إشراقاً
مع الصبح ، وجمال الموسيقى يملأ النفس إشراقاً مع المساء .
لأنني لظالم للحق ولنفسي حين أحفل بهذه الضفادع البائسة التي
تملأ جو مصر نقيًا . وما الذي يمنعني حين تثقل عليّ عشرة
الضفادع أن أنسل من بينها كما تنسل الشعرة من العجين ، فأخلو
إلى روائع القديم وأخلو إلى روائع الحديث ، وأتغزى بجمال
الأدب والفن والموسيقى عن قبح السياسة والمناقع وغدر الغادرين
ومكر الماكرين وخيانة الخائنين !

أفق أيها القلب الذي شفه الحزن وبرح به الآلام وتركت فيه
عشرة الناس ندوباً بغيضة . أفق أيها القلب ، فإن عشرة الناس لم
تفرض عليك ما دمت تستطيع أن تفر منها إلى عالم كله صفاء
ووفاء ، وطهر ونقاء ، ورفعة وإباء . لقد كنت كلما ألحت عليك
بالخطوب تتمدح بأنك قد اتخذت لنفسك شعاراً من قول
أبي نواس :

وما أنا بالمشغوف ضربة لازب ولا كل سلطان عليّ أمير
فمسا لك قد أدركك الضعف وسعى اليك الوهن ، وكدت
تشك في نفسك وكدت تنكر من أمرك ما لم تتعود له إنكاراً ؟
لشب إلى نفسك ولشب إليك نفسك ، ولتضعف إلى هذا البيت
للذي تحبه من شعر أبي نواس بيتاً آخر طالما أحبيته من شعر
بشار :

إذا أنكرتني بلدة أو نكرتها خرجت مع البازي عليّ سواد
وقد أنكرتك مصر أو انكرت مصر ، فخرجت منها ذات
يوم مع الصبح ، ولم تكذ تنسأ عنها حتى غمرك جمال
القديم اليوناني في الضحى ، وجمال موسيقى بيتهوفن مع
المساء ، فنسيت مصر وأهلها ، ونسيت مكر الساكرين ،
ولهوت عن غدر الصديق وعن جحود الجاحدين . والنغم من
حولي يملأ الجو قد أخذ نفسي من جميع أقطارها ، وغمر
قلبي من جميع وجوهه ، وإذا أنا في هذه الساعة القصيرة
الحلوة أحس كأنني أعيش مع ابني التي تركتها في القاهرة
ومع ابني الذي أسعى إليه في باريس . وقد أخذت زوجي بيدي
وهي تقول لي في همس رقيق : ألا تظن أن حياة الناس
ما زالت بخير ما داموا يستطيعون أن يصعدوا إلى الأكروبوليس
حين يقبل الصبح ، وأن يستمعوا إلى بيتهوفن حين يقبل
الليل ١٢

ذكرته منذ أشرق الصبح إلى أن أقبل الليل ، فلم تسكن
السفينة تدنو من الساحل وتستقبل ثغر جنوا حتى ملأت ذكراه
قلبي وعقلي وضميري . ولم أكد أهبط من السفينة وأمسس
بقدمي أرض هذه المدينة حتى أحسست كأنه يسعى معي
قد أخذ ذراعي اليسرى بذراعه اليمنى ومضى معي في أنساة
وتؤدة ووقار ، يتحدث إلي في صوته الممتلئ السلي يستحب
الهمس على الجهر ، ويطرق معي في حديثه موضوعات مختلفة
كثير منها يتصل بالدعابة والعبث الخلو أو المر ، وقليل منها يتصل
بالجد الصارم .

ذلك أني صحبته على هذا النحو منذ بضعة عشر عاماً حين
شهدنا معاً مؤتمر المستشرقين الذي اجتمع في روما سنة ١٩٣٥
وقد قضينا أيام المؤتمر نسكن داراً واحدة تغدو منها مع الصبح
إلى الجامعة القديمة لنشهد جلسات المؤتمر ، ونعود إليها متلكئين
حين يريد النهار أن يتصف ، نسعى سعياً رقيقاً وقد نخرج على

هذه القهوة الكبيرة أو تلك القهوة الصغيرة فلم بها الإمامة قصيرة،
ثم نتكلف الإسراع إلى الدار حتى لا يطول انتظار الذين سيشاركوننا
في الغداء . ثم لا ننصرف عن طعامنا حتى نرجع إلى الجامعة
مسرعين ، فنقيم فيها ما أمسكنا المؤتمرون بأحاديثهم ومحاضراتهم ،
ثم نروح منها وقد تخففنا من ثقل ثقل وفرغنا من العلم والعلماء
لاحاديثنا العابثة الجادة التي لم تكن تحب ان تنتهي قبل أن
يتنصف الليل . فلما تقضت أيام المؤتمر وزرنا من معاهد روما
ومعالمها ما شاء الله أن نزور ، مضينا معاً إلى فلورنسا فأقمنا فيها
يوماً وبعض يوم ، نريد أن نزور معالمها ومعاهدها ومتاحفها في
شيء من الجد ، ويأبى علينا الكسل وحب الحديث إلا أن نغضي
في شوارعها متباطئين ، ونجلس في قهواتها كلما أتيح لنا الجلوس
ونشتري من طرفها ما كانت تسمح لنا بشرائه ثمالة من المال
بقيت لنا من سفر طويل تنقلنا فيه بين باريس وروما وغيرهما
من المدن الفرنسية والإيطالية . ثم نبلغ جنوا ذات يوم حين مضى
أكثر النهار . وإذا المدينة قائمة قساعة تشارك إيطاليا كلها
في قيامها وقعودها ، لأنها كانت تنتظر كما كانت إيطاليا تنتظر
وكما كان العالم كله ينتظر نبأ خطيراً وحديثاً أجلاً منه خطراً . في
ذلك اليوم كانت إيطاليا تنتظر أن تدعى كلها في الأصيل إلى تعبئة
تجريبية وإلى الاستماع لخطبة كان موسوليني يريد أن يلقيها على
الشعب الإيطالي كله بل على العالم كله . وما هي إلا أن ينطلق
ذلك الصغير المزعج ، فتمتلئ به أرجاء المدينة ، وتفرغ له
الدور والمتاجر والمصانع ، ويهرع له الناس كلهم شيوخهم

وكهولهم وشبابهم وصبيانهم إلى الميادين العامة ليسمعوا حديث.
موسوليني عن غزو الحبشة وتجديد الامبراطورية الرومانية التي
يجب أن يكون لها مجد طريف يشبه مجدها التليد. ولم أحس الغربة
قط كما أحسستها في ذلك المساء ، فقد كان الايطاليون جميعاً
مبتهجين تملأ قلوبهم الثقة ويغمر نفوسهم الأمل وتطمئن ضمائرهم
إلى أنهم قد ملكوا الدنيا وقهروا أهل الأرض وأصبحوا للناس
جميعاً سادة وقادة وعليهم جميعاً ملوكاً وحكاماً . ونجلس إلى
مائدتنا حين يقبل الليل ، وإذا الخادم يسعى علينا بصحافه
وأكوابه وفي نفسه كثير من الازدراء لنا والعطف علينا ، فقد
علم اننا مصريون وقدر في نفسه أن منكون له في يوم من الأيام
أتباعاً وخداماً ، وأن سيكون منا من يسعى لخدمته بالصحاف
والأكواب كما يسعى هو لخدمتنا ، وهو يعنف بنفسه ويشق
عليها حتى لا يتحدث إلينا بما يذاعب ضميره من الأمل ، ولكنه
آخر الأمر لا يملك أن يقول في ضحك ساخر : أسمعتم دعاء
النفير ؟ إنه لابد أن يسقط الإمبراطورية البريطانية ، فلن تشرق
شمس الغد حتى تزلزل الأرض بهذه الإمبراطورية التي أذلت
الناس ، والأيام دول ، فسيدال من بريطانيا العظمى لإيطاليا منذ
اليوم .

ونسمع نحن فنخفي الغيظ ونكتم السخرية ونستخف نفوسنا
بإيطاليا وبريطانيا جميعاً . ولكننا نذكر مصر فترثي لها ونشفق
عليها ، ونسأل أنفسنا عما تضمّر لها الأيام وعما سيصيبها من هذا
للصراع ، ثم لا نلبث أن نعود إلى حائشنا الذي يعبث كثيراً

ويجد قليلاً . حتى إذا فرغنا من طعامنا خرجنا نساير ساحل البحر وفي يد كل منا سيجار ضخم يرفعه إلى فمه بين حين وحين ، والحديث متصل لا يريد أن ينقضي ، وقد بلغ السيجار آخره وتبعته السجائر الصغار ، حتى إذا أوشك الليل أن يتتصف عدنا إلى فندقنا وأوينا إلى مضاجعنا ، وغدونا مع الضحى إلى السفينة فأبحرنا عائدين إلى مصر ، وقضينا أيام السفينة فسرحين مرحين ، نطرد الجسد إذا ألم بنا الجسد ، ونذود حديث العلم إذا خطر لنا حديث العلم ، ولكنتا لا نكاد نستقبل ثغر الأسكندرية حتى نفرق ساعة أو بعض ساعة ثم نلتقي ، وإذا هو قد دخل في زيه القديم واسترد وقاره الذي يعرفه مواطنوه وجلس والتف حوله نهر من المصريين يتحدثون إليه ويسمعون منه في إكبار وإجلال . وأدنو فيلقاني كما تعود أن يلقاني في مصر ملقياً إلي تحيته الحلوة بصوته العذب الذي يملؤه الجد وتستخفي فيه مع ذلك دعابة يستسيغها هو وأسيغها أنا ، ولا يحس الحاضرون منها شيئاً .

كل هذا ذكرته حين وطئت قدماي أرض جنوا ، وكل هذا استحضرتة وأنا أطوف في المدينة ألم بهذه القهوة وأقف عند هذا المتجر وأدخل هذا المطعم ، ولا أترك المدينة حتى أمر بالمطعم الذي أصبحنا فيه عشاءنا في يوم من أيام سبتمبر سنة ١٩٣٥ .

وأشهد لقد كنت في ذلك اليوم شخصين مختلفين كل الاختلاف : أحدهما يظهر الفرح والمرح ، ويظهر الكتابة

والحزن ، بفرح بزيارة إيطاليا التي لم يرها منذ أعلنت الحرب ،
ويحزن لما أصاب المعالم والمعاهد فيها من الدمار ، ولما شاع في
نفوس أهلها وعلى وجوههم من البؤس ، ولهذه الصور التي
تعرض في بعض الشوارع تمثل بعض الذين فتكت بهم الحرب
فتكاً مروعاً بشعاً ، ولهذه الأزهار الرخصة التي صفت عند
هذه الصور والتي يتعهد بها الناس فيغيرونها قبل أن يسدركها
الذبول .

والآخر حزن كله وكآبة كله ، ووفاء كله لا يعرف الفرح اليه
سبيلاً ، ولا يسمع الحديث الذين يسعون من حوله ، ولا يحس
أن أحداً يسعى من حوله ، وإنما يسمع الحديث واحد متصل يعبت كثيراً
ويجد قليلاً ، ولكنه يأتي من مكان بعيد يحترق إليّ حجب الموت
وينفذ إليّ من طريق الحياة .

وأبلغ السفينة كاذب الفرح صادق الحزن منافقاً فيما بيني وبين
الناس من صلة ، فأضطرب مع السفن فيما يضطربون فيه .
حتى إذا أبحرت السفينة وأقبل الليل ثم تقدم فبلغ نصفه أو كاد
وهدأت الحركة من حولي ونام الأهل والزمان ، برئت ممن
الفرح الكاذب وتخلصت من هذه الصلات المتنافقة ، وخلوت
لا إلى نفسي ولكن إلى هذا الصديق العزيز أسمع حديثه
يحترق إليّ حجب الموت وينفذ إليّ من طرق الحياة ، وقد
قنيت في هذا الحديث حتى لم أحس شيئاً ولا خاطراً ولا فكرة
ولا شعوراً . ولكنني أهب فجاءة وقد ملكني الذعر وملا نسي
الخوف لأنني أسمع صوته ، أسمعه بأذني لا بضميري . أسمعه

كما يسمع الناس أصواتهم حين يتحدث بعضهم إلى بعض . أسمعهم وأمد يدي كأني أريد أن أصافح يده ، ولكن يدي لا تلتقي شيئاً وإنما هي ممتدة في الهواء ، والصوت الحلو الجاد الذي تشيع فيه السخرية الخفية متصل يقول :

يا مؤثر السهد على النسوم عدالك ما تخشى من اللوم
قد أقبل الناس على لوهسم وماز الجسد من القوم
أحافظ أنت لذكراي أم شغلت عن أمسك باليوم

ولولا أنني وجدت في صوته إيناساً رد إلي نفسي لحفت أن أصبح فأروع النائمين . ولكنني أنست إلى هذا الصوت كما تعودت دائماً أن آنس إليه ، وإذا أنا أسأله من تكون ؟ وإذا أنا أسمعته يقول إنك لتعلم من أكون ، سلمي إن شئت بضميرك ولا تجهر بسؤالك ولا تخافت به ، فان للموتى آذاناً تسمع نجوى الضمير .

وقد جعلت ألتمس نفسي وأحقق ما حولي لعلني أن أكون مغرقاً في نوم أو هائماً في حلم ، ولكنه يردني إلى الثقة ويؤكد لي في صوته العذب الحلو أنني لست نائماً ولا حالماً ولا هائماً ، وإنما أنا يفظ كأقوى ما تكون اليقظة ، حاضراً السذهن كأحسن ما يكون حضور الذهن . وكل ما في الأمر أنني أنكر مكانه مني في هذه السفينة التي تسعى بين إيطاليا وفرنسا متابعة عن بعد ساحل الريفييرا ، على حين أنه قد ترك ديانا هذه منذ عام وبعض عام . وأكاد أجيئه بأن هذا هو الشعور الذي

أجده والخاطر الذي أديره في نفسي . ولكنه ليس في حاجة إلى أن أرد عليه رجوع حديثه ، فهو يختطف الشعور الذي أجده قبل أن أحققه في نفسي ، ويختطف الفكرة التي تخطر لي قبل أن أستتمها في ذهني . وكأنه أحس أن هذا الحديث الخاطف يشق عليّ ويكلفني من الجهد والمشقة ما يجاوز طرق الأحياء ، فيعتمر إليّ متلطفاً وهو يقول : لا بأس عليك ! فقد تحدثت إليّ الموتى منذ عمام وبعض عمام حتى ألفت أحاديثهم الخاطفة ، وأنسيت حديث الأحياء ذلك المستأني البطيء . وأهم أن أسأله عن مكانه مني ، فينبئني بما يملأ نفسي وجلاً ورعباً ، وبما أحب أن يستحضره الأحياء دائماً حين يعملون وحين يقولون وحين يفكرون وحين تتصل أعمالهم وأقوالهم وخواطرهم بما كان بينهم وبين الموتى من صلة قبل أن يقطع الموت بينهم أسباب الحياة : ينبئني بأن الموتى لا يفارقون الأرض إذا خرجوا من أجسامهم إلا بعد وقت طويل لا يعد بالأشهر ولا بالأعوام : فهم في هذه المهلة التي تتاح لهم قبل أن يخرجوا من الأرض موكلون بمثل ما كانوا موكلين به قبل أن يموتوا : يرون ويسمعون ويعرفون وينكرون ، ولكنهم لا يستطيعون أن يغيروا شيئاً أو أن يحدثوا شيئاً . وهذه المهلة هي التي يشار إليها في أحاديث الديانات والسير والأساطير بما يسمى الأعراف ، وقت يمتحن فيه الناس فيسه بعد أن يموتوا وقبل أن يتلقوا ما قضى لهم من مثوبة أو عقوبة ، يرون فيه أعمالهم وأقوالهم وآثارهم ، فيشقون كثيراً ويسعدون قليلاً ويمحصون بما يجدون من السعادة

والشقاء . ولا يبلغون آخر هذه المهلة حتى يكونوا قد خلصوا
لما سيستقبلون من حياة راضية أو قاسية إلى آخر الأبد إن كان
للأبد آخر .

وهم في هذه المهلة مدفوعون إلى أن يستعيدوا حياتهم
الأولى كما أنفقوها ، فهم يلتمون بكل مكان ألوا به حين
كانوا يحيون في حياتهم الدنيا ، وهم يعرضون على ما قدموا من
خير وشر ويعرض عليهم ما قدموا من خير وشر ، وهم يمثلون
مسيرتهم كلها تمثيلاً ، فيعملون الخير عالمين بأنه الخير ويجدون
لذلك راحة وروحاً ، ويقارفون الشر عالمين بأنه الشر فيجسدون
لذلك شقاء وبؤساً وعذاباً أليماً .

قال صاحبي : وثق بأننا لا نمثل حياتنا مرة أو مرتين أو
مرات قليلة ، وإنما نمثلها ونمثلها مراراً لا تحصى ، حتى يشق
علينا ذلك ويضيق بنا أو تضيق به ، وحتى يود كل واحد منا
لو صرف عن حياته صرفاً فلم يخرج إليها ولم يخرج منها ، وحتى
يقول كل واحد منا في نفسه ألف مرة ومرة في كل يوم بل في
كل ساعة : يا ليتني كنت تراباً .

قال صاحبي : وأنت تراني الآن في هذه السفينة أتحدث
إليك وأسمع منك ، فأصل ذلك أن حياتي التي أنفقتها في
إيطاليا وفي فرنسا وفي أوروبا كلها تعرض علي وأنا أعرض
عليها . فقد كنت في روما قبل أن ألقاك وأقبلت على جنوا
فلقيتك ، وما أدرى أأدفع إلى فرنسا فألقاك أم أزد إلى مصر أم
أدفع إلى وجه آخر غير فرنسا ومصر من الوجوه التي دفعت

اليها في حياتي الأولى . بل ما أدري ! لعلني أن أدفع إلى فرنسا
وأن أدفع إلى باريس ، وأن ألمّ بالأماكن التي ألمت بها وحدي
أو مسع غبرك من أصحابي ، وأن ألمّ بالأماكن التي ألمت بها
معك ، ثم لا يتاج لي مع ذلك أن ألقاك كما ألقاك الآن ، وأنا
أقول لك وأسمع منك كما أقول لك وأسمع منك الآن ،
فإن أمورنا في هذه المهلة التي أتيت لنا تجري على قوانين
لا نعقلها ولا نحققها ولا نحيط بها ، كما كانت أمورنا في حياتنا
الأولى تجري على قوانين ليس لنا عليها سلطان. قلت لصاحبي :
وتظن أن أمورنا تجري في حياتنا الدنيا على قوانين لا سلطان لنا
عليها ؟ قال : لا أظن ذلك وإنما أقطع به ، ولو قد جرت
أمورنا على قوانين نعرفها ونألفها لقدمنا من الأعمال غير
ما قدمنا ، ولتجنبنا من السيرة ما أقبلنا عليه راغبين فيه عاكفين
عليه محبين له أشد الحب . أتذكر أنك أنكرت عليّ ذات يوم
بعض أمري دون أن تحدثني بانكارك أو تظهرني على ذات نفسك
وإنما وجدت عليّ وأضمرت الموجلة وأحسست أنا ذلك إحساساً
قوياً ، ولمت نفسي فيه بعض اللوم ولكني مضيت لشأني غير مثقل
على نفسي بالعتب ولا ملح عليها في اللوم.

أتذكر ذلك ؟ قلت : نعم ! قال : وتذكر أنك لم تتحدث
بموجدتك إلى أحد من الناس ؟ وإنما تحدثت بها إلى ما حفظت
في نفسك من ذكرى إخوتي الذين سبقوني إلى الموت ؟ قلت :
نعم ! قال : فهل تعلم أن موجدتك تلك تعدني عذاباً لا قبل
لي به ؟ قلت : فلما قد أنسيت هذه الموجدة قبل أن

تفارقنا . ألا تذكر أننا التقينا وتصافينا واستعدنا ودنا القديم غصاً
ضرراً كأحسن ما عرفناه ؟ قال : بلى ! إنك قد أنسيت هذه
الموجلة وإن ما استأنفنا من الصفو والعفو قد أراحني من وخز
الضمير ، ولكن إخوتي لم ينسوا هذه الموجلة ، ولكن الكتاب
الذي يسجل علينا أعمالنا ولا يغادر منها صغيرة ولا كبيرة إلا
أحصاها قد سجل إساءتي إليك فيما سجل ، فهل تريد أن تعرف
كيف أعذب بإساءتي إليك ووجدك عليّ ؟ لا يكاد يمضي
وقت طويل حتى أراني أحدث الإساءة إليك بمحضر من إخوتي
كلهم ، وأراك تأسي لذلك أشد الأسى ، وأرى إخوتي ينظرون
إليّ شرراً ثم يتحولون عني معرضين عافين ، ثم يكرهون لقائي
وحديثي وقتاً لا أحصيه . وأجد أنا من موجدتك ومن إعراضهم
ومن هذه الصورة البشعة التي تعرض عليّ ألا أستطيع أن
أصوره ولا أستطيع أن أصبر نفسي عليه . وكذلك أعذب بسيرتي
كلها منذ استجبت لظروف الحياة ، فآثرت المنفعة العاجلة
على المودة القديمة ، وأرضيت السياسة على حساب الصداقة
والإخاء . قلت : وقد أثر ذلك في نفسي أبلغ الأثر : فهل أملك
لك من هذه العائبة المؤلمة شيئاً ؟ قال : نعم ! تملك أن تغفر لي
وقد فعلت ، وأن تستغفر لي لعل الله أن يتجاوز لي عما قدمت ،
ولعل إخوتي أن يلقوني بغير ما جعلوا يلقوني به من النبو والإعراض .
قلت : لأفعلن ولأدعون أصدقاءك جميعاً أن يفعلوا مثل ما أفعل
وأن يستغفروا لك مصبحين ومسيين وهذا أيسر ما لك عليهم من
الحق ، فقد بررتهم ورفقت بهم وأحسن إليهم ، والحسنات

يذهبن السيئات ، والمكرمات بمحون الخطايا . قال : وأخرى أحب أن أدعوك إليها وهي ألا تشكو الأحياء حين يسيئون إليك إلى الموتى ، فلن للموتى قسوة لا تكاد تحققها ، فهم لا يعرفون رحمة ولا رافة ولا إشفافاً . فمهما يسيء الأحياء إليك ، فلا تكلهم إلى الموتى ولا تستعد عليهم أحداً ، ولكن كلهم إلى عفوك وصفحك ، وكلهم بعد ذلك إلى أنفسهم ، فإن لهم ضمائر إن لم تعذبهم الآن فستعذبهم بعد أن يفارقوا الحياة .

وارحمته للأحياء من عذاب الضمائر حين يموتون !
واهاً لإخواني قد أفطروا ولم أزل أمعن في الصوم
قلت فاني لم أفهم عنك هذا البيت .

قال : ولن تفهمه حتى تصوم كما أصوم ، فان للموتى أحاديث لا يستطيع الأحياء لها تأويلاً .

وأريد أن أرد عليه رجع حديثه ، ولكي أسمع صوتاً عذباً يدعوني قائلاً : واها للذين ينامون ، وقد استقبلت السفينة نجر مارسيليا ، فأفنى متكلفاً وأنهض متثاقلاً وأريد أن أقص على زوجي بعض ما كنت فيه ، ولكنها تسخر مني قائلة : لو انصرفت عن بعض السخف الذي تغرق فيه نفسك أثناء اليقظة لما عرضت لك هذه الأحلام المروعة . يجب أن تكون قد فكرت قبل أن تنام في تلك القصة التي أثقلت علي وعلى الناس بالحديث عنها والتي أجراها صاحبك جان بول سارتر بين الموتى ، كأنه قد فرغ من الأحياء فلم يبق له إلا أن يشغل نفسه بالموتى : أسرع إلى ثيابك ، فلاني لم أعد أمتعنا بعد ، وما أحب أن

نبلغ المرسى ونحن في غرفتنا هذه : وأسرعت إلى ثيابي
طائعا وأنا أقسم بيني وبين نفسي ما فكرت في قصة جان
بول سارتر منذ ركبت في السفينة بل منذ أكثر من
شهرين .

قالت وفي صوتها حنسان يتم عن كامن التيساع
لا يلبث الأصدقاء حتى يدعوهم للفراق داع

ثم ألقت إليهن نظرة طويلة حزينة وإن كان قلبها ليملؤه
الفرح والمرح والغبطة لبلوغها أرض وطنها ولأنها ستلقى ابنها
بعد يوم وبعض يوم . قالت لي وهي تتنهد تنهداً لم يستطع
أن يخلص للحزن : « وددت لو استصحبتهن إلى باريس . ولكن
ماذا أصنع بهن أثناء هذا النهار الطويل الذي ستنفقه في
مارسيليا متقلين من قهوة إلى مطعم ومن مطعم إلى قهوة وهن
صاديات إلى المساء ؟ ! قلت متضاحكاً وفي نفسي حزن لا يسكاد
يبين : نعم ! وماذا تصنعين بهن في هذا النهار الطويل
السدي ستقضينه في مارسيليا متنقلة بين المناجر ، لا تلمسين
بواحد منها إلا لتركيه إلى غيره ، محبة لذلك مشغوفة به ،
لا تشتربين وإنما تنظرين وتفسدين لعلك أن تشتري ذات
يوم ؟

وكذلك تحول الحديث من جد إلى لعب ، ومن حزن إلى

فكاهة ودعابة ، وأضمرت القلوب مما أضمرت لتلك الزهرات
النضرات من حب وود وحنان . وكانت تلك الزهرات قد
لقيتنا في محطة القاهرة أرسلها للقائنا ووداعنا ومرافقتنا
أثناء السفر صديق كريم علينا حبيب إلينا ، وحملها من مودته
ولإخائه ووفائه ما لا تستطيع الكلمات أن تؤديه ولا أن
تحمّله ، وما يحسن الزهر أن يحمله ويؤديه في بلاغة قصص
لا يزينها إلا طناب ولا يحسنها إلا إنجاز ولا تستقيم لها المساواة ،
وأين هي من ذلك وهي بلاغة لا تؤدي إلى القلوب بالأصوات
والكلمات وإنما تؤدي إليها بالجمال النضر البارع والأرج الرائع
النفاد ! ولم تكده هذه الزهرات تلقانا وتسمع في شيء من
السخرية حديث من حملها إلينا وهو يبلغنا تحية مرسله ، وحديثنا
نحن ونحن نقبل التحية شاكرين ونتلقى الزهر كلفين بسه
مرتاحين إليه — أقول لم تكده هذه الزهرات تلقانا ساخرة من
كلامنا ومن إعجابنا ومن عبارات التأثير تلك التي يتبادلها الناس
حتى طوت عنا أسرارها طيًّا وأخفت علينا أخبارها إخفاء .
كانت تعلم في أكبر الظن أن القطار لا يصلح لنجوى الزهر ،
لكثرة مساغلها به الأنفس والأسماع من الضجيج والعجيج ،
ولسكرة ما يعرض للسفر فيه مما يشغل عن النجوى
والحديث .

والزهر لا يحسن النجوى إلا حين يهدأ من حوله كل شيء ،
وحين يخلو إليك ويخلو إليه ، وحين يفرغ لك وتفرغ له . فلم
تحفل بنا إذن تلك الزهرات وإنما انطوت على نفسها انطواء ،

والتوت عنا القواء ، وأسرعنا إلى صاحب « البولسان » فلتمس
عنده شيئاً من ماء ، فانتظر تناراضية أو كارهة وصحبنا بين القطار
والسفينة ناعمة أو بائسة ، واحتملت عبث الأيدي بها حين بلغنا
مستقرنا من السفينة ، وأوت إلى الآنية التي صفت فيها تصفيفاً ،
ولم تكد تفرغ من الناس ويفرغ الناس منها حتى تحدثت فأحسنت
الحديث .

تحدثت إلى قلوبنا وأذواقنا وعواطفنا ، فزينت الود الخالص
الذي لا يصدر عن طمع ولا عن خوف ، والذي لا يشوبه رهب
أو رعب ، والذي لا تفسده مخادعة أو مصانعة ، والذي لا يعرب
عن آسأل تريد أن تحقق وتخشى أن تخيب ، والذي لا يصور بأساً
من غيرك ورجاء فيك ، والذي لا يبتغي عندك نفعاً ولا يتقي
منك ضرراً ، والذي لا يكدره ما يكدر صلات الناس من هذا الشر المنكر
الذي تخفيه الضمائر وتكتمه القلوب ، وإنما هو الود الصفو والعفو
الذي يصدر من النفس إلى النفس ، ويصل القلب بالقلب ، ويبلغ
الضمير رسالة الضمير .

وتحدثت عن هذا الإخاء الذي لا يأتي من قرابة النسب ولا
من اشتراك المصالح ولا من تضامن الناس وتعاونهم ليؤكد
بعضهم لبعض ويمكر بعضهم ببعض ، وإنما يأتي من الأدب
حين يتصل بين الناس شعور صفو بالجمال الصفو وطموح رفيع
إلى الحق الرفيع .

وتحدثت عن هذه الصلات الحلوة التي تنشأ بين الناس
بريئة إلا من حب المعرفة ، نقية إلا من الترفع عن الصفائس

والتنزه عما يشين الرجل الكريم . وكانت أحاديثها رقيقة رشيدة
لا تؤذي السمع ولا تشق على النفس ولا تشغل عما يعرض للناس
وما يعرض الناس له من المنافع والمآرب والحاجات ، وإنما
تسعى عبيراً أريجاً دقيقاً فتبلغ أعماق الضمير في غير جهد ولا
تكلف ، أو تتمثل جمالاً رائعاً بارعاً فيه نضرة الندى ورقة
للنسيم وابتسامة الشمس المشرقة وهدوء الليل المطمئن وخصب
الأرض الغنية وغناء الطير الفرح المرح ، فتملاً العيون بهجة
وتنعم النفوس غبطة ، وتشيع في القلوب رضاء وأمنًا واطمئنانًا ،
وتقر في العقول أن الحياة ليست كلها غدرًا ومكرًا وكذبًا ومينًا
وخداعًا ونفاقًا وكدرًا ورنقًا ، وإنما هي شيء أرقى وأنقى
وأجمل وأكمل من هذا كله ، وهي خليقة أن تحياها ما دامت
الطبيعة تستطيع أن تهدي إلى الناس زهراً نضراً يحمل ابتسامة
الشمس ورقة النسيم وعدوبة الندى وهدوء الليل وخصب الأرض ،
وربما تحدثت إلى النفوس ألواناً من الحديث لا تستطيع لغات
الناس أن تصورها لأنها غامضة أغمض من أن تسعها الألفاظ ،
ولأنها واضحة أوضح من أن تنكرها النفوس ، ولأنها تصور
من نجوى الشجر والزهر حين تشملهما ظلمة الليل أو يغمرهما
ضوء النهار ، وما يكون من مرح الغصون حين يداعبها النسيم
ومن جزعها وفرعها حين تعصف بها الرياح ، وتصور مسرح
الطير حين يسفر الصبح واكتئابها حين يدنو الأصيل ، وتصور
ما يكون بين أمواج الأنهار والجداول من مداعبة وملاعبسة
ومعاقبة ومغاضبة ، وتصور ما تحمل الشمس المشرقة إلى الأرض

من تحية وما تضرع الشمس المحرقة على الأرض من موجدة ،
وتصور هذه الرسائل العجيلة الخفية التي تحملها أشعة الكواكب
والنجوم بين الكواكب والنجوم .

تصور هذا كله وأكثر من هذا كله ، وتحمله إلى النفس
في أناة مستأنية ورفق رقيق ، لا تشق عليك ولا على أنفسها بذلك
ولما تسعى أحاديثها من قبلها إليك عفواً في غير مشقة ولا جهد
وفي غير تكلف ولا تصنع . وأنت تسمع لها إن شئت وتعرض
عنها إن أحببت ، وأنت تعقل من أحاديثها ما تفتح له نفسك
وينشرح له صدرك ، ثم لا تشقى بما لم تسمع منها أو تفهم عنها
من الحديث ، لأنها لا تدعوك إلى أن تسمع لها ولا تلح عليك في
أن تفهم عنها ، وإنما هي قائمة باسمه ، تؤدي رسالتها وتلقي
أحاديثها لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد . فهي تحمل
إلى الإنسان رسالة الإنسان ، وهي تحمل إلى الإنسان رسالة
الطبيعة ، وهي لا تشق على الإنسان حين تبلغه هذه الرسالة أو
تلك ، وهي تنتظر ناعمة مشيعة النعمة من حولها ، حتى إذا سعى
إليها الذبول ومثى فيها الدواء استقبلت الفناء راضية كما استقبلت
الحياة راضية ، وودعتك بآخر ما ترسل من أرجها وآخر
ما تنشر من جمالها ، فتركت في نفسك أثراً كالذي تركته في نفس
زوجي وفي نفسي ، فيه كثير من حب وكثير من رفق وكثير من
حنان ، وفيه شيء من اكتئاب وشحوب .

وقد فارقنا زهراتنا في السفينة وفيها شيء من حياة صحبتنا
أثناء السفر فأحسن الصبحة ، ولولا الحياء لأوصينا بها أصحاب

السفينة خيراً . وكانت إلمامتنا قصيرة ، وكان سفرنا إلى باريس
ميسراً ، وإن عرضت لي فيه خطوب سأعود إليها
بعد حين .

وأقمنا في باريس ما شاء الله أن نقيم ، وعرضنا فيها لما شاء
الله أن نعرض له ، وعرض لنا فيها ما شاء الله أن يعرض لنا من
الأمر . ثم أذف الرحل عن باريس ، ولم يبق بيننا وبين ركوب
القطار إلا ساعات قليلة ، وقد ودعنا فتانا وأبيننا عليه أن يصحبنا
إلى المحطة ، وألححنا عليه في أن يفرغ لشأنه ويتزود من الراحة
قبل أن يستقبل امتحانه الشاق العسير .

وينصرف الفتي عنا شجاعاً جلدأ ، ولا يكاد يغلق الباب مني
ورائه حتى تنهل دموع وتشرق حلوق وتتقطع أصوات فسي
الصدور . ثم يقبل الزائرون يتبع بعضهم بعضاً وقد كدنا نتسلى
عن لوحة الوداع ، ولكن طارقاً يطرق الباب في رفق ، فليذا
فتيح له سبق العبير صوته ، فنحس بأن الفتي قد أبى أن نفترق
على هذا الوداع الأليم ، فاخترار زهرات ، وألقى إليها بسذات
نفسه وأمر إليها أن تحمل حبه وبره إلى أبويه .

وقد عادت الدموع إلى أنهلها وعادت الحلوق إلى شرقها ،
وعادت الأصوات إلى تقطعها في الصدور . ولكن جمال الزهرات
رد إلى النفوس شيئاً من هدوء ، ولكن عبير الزهرات رد إلى
الضمائر كثيراً من أمل ، ولكن نضرة الزهرات ملأت القلوب
حباً وحناناً .

وكانت هذه الزهرات فصاحاً كل الفصاحة مسمعات كل

لاسماع عجلات إلى إلقاء أحاديثها وأداء رسالتها والكشف عن
أسرارها . فهي تتحدث إلينا في غرفة الفندق ، وهي تتحدث
إلينا في السيارة بسين الفندق والقطار ، وهي تتحدث إلينا في
القطار ما أمسكتنا اليقظة ، وهي تتحدث إلى أحلامنا حين
يستأثر بنا النوم . وهي تتحدث إلينا في جنوا أيقاظاً ونياماً ،
وهي تتحدث إلينا في السفينة بين جنوا ونابولي أيقاظاً ونياماً
كذلك . وهي الآن وأنا ألمي هسدا الحديث تتمظرونا في غرفتنا
بما بقي فيها من حياة نبث أحاديثها إلى جو الغرفة وما فيها
من أداة . حتى إذا اشتملها الدواء تركت من روحها ما
يمضي في التحدث إلينا عن فتانا حتى نبليغ مصر إن شاء الله .
وأشهد إني لأنحني عليهن بين حين وحين ، فأشمنهن وأشمنهن
وأنشدن قول أبي العلاء حمائمه :
إيه لله دركسن فأنت ن اللواتي يحسن حفظ الوداد

لم نكد نرقى إلى السفينة بعد ان طوفنا في جنوا ساعات حتى
ذكرنا أننا لم نرسل البرقية التي كنا نزمع إرسالها إلى القنصلية
المصرية في مارسيليا . فقد كنا قدرنا أننا سنصل إلى مارسيليا
حين يوشك النهار أن ينتصف ، واستكثرتنا أن ننفق فيها سائر
النهار وعامة الليل ، ثم ننفق النهار كله بعد ذلك في القطار
ونصل إلى باريس حين يتقدم الليل فنقضني في فرنسا يومين
كاملين لا نرى فيهما الفنى ، وما أشد شوقنا إلى لقائه ! وما
أشد حرصنا على ألا نزعجه عما هو فيه من استعداد لامتحانه
العسير .

وكنا قد أصدرنا إليه الأمر من القاهرة ألا يخف للقائنا
ولا يسعى إلينا إلا حين ندعوه بالتليفون ، فليس من شك في
أنه سيسمع ويطيع وقد تنازعه نفسه إلى لقاء أبويه ، فلنخف
عليه مقدمنا إذن ، ولننبته بمكاننا بعد أن نستقر في فندقنا . من
أجل ذلك أزمعنا أن نخالف عن عادتنا المألوفة فنسافر إلى
باريس في قطار الليل لا في قطار النهار كما نحب دائماً أن نفعل .

فليس بد إذن من أن نبرق إلى قنصلنا في مارسيليا ليتفضل
فيحجز لنا أماكتنا في قطار الليل . وقد أنسينا هذه البرقية
لكثرة ما عرض لنا من الأمر في جنوا ، وما ألمّ بنفوسنا
وقلوبنا من الخواطر والذكريات . فلما ذكرنا هذه البرقية
بعد صعودنا إلى السفينة تقدمنا إلى « فريسد » أن يحتسب في
إرسالها . فما أسرع ما هبط إلى الأرض ، وما أسرع ما عاد
إلينا يثبتنا بأن البرقية ستصل إلى القنصل بعد دقائق لن تبلغ
العشرين !

كذلك قدرنا ، ولكن السفينة وظروف السفر قدورت
شيئاً آخر ، فلم نبليغ الساعة التاسعة من صباح الغسل حتى
كانت سيارة قد انتهت بنا إلى محطة مارسيليا وفيها عرفنا
أن قطاراً سيسافر منها إلى باريس إذا انتصف النهار . فترسل
فريسد إلى القنصل ليعلم لنا علمه ونحن نتمنى فيما بيننا وبين
أنفسنا ألا يكون حجز الأماكن في قطار الليل قد يسر له .
ونجلس إلى قهوتنا ننتظر عودة فريسد ، وما هي إلا ساعة حتى
يعود ومعه القنصل يقسم جهده أمانه أن الرسالة لم تصل إليه
إلا بعد أن لقيه فريد . وهو يعتبر ما وسعه الاعتذار ، ولا يقدر
أن تأخر هذه الرسالة ووصولها بعد مرسلتها قد صادف هوى في
نفوسنا وحقق لنا أملاً عزيزاً علينا ، وما أقل ما تحقق الآمال في
هذه الحياة !

ونحن نجتهد في أن نحتجز الأماكن في قطار الظهر ، ندفع إلى
المحطة وتدفعنا المحطة إلى كوك . وقد شكرنا القنصل جهده

ورددناه إلى عمله الكثير ومواعيده الخطيرة سالماً موفوراً لم يلسق
كهداً ولم يكلم كلاماً .

ثم لا يتتصف النهار حتى نكون قد أخذنا أماكننا في عربة من
عربات « البولمان » من الدرجة الثانية بعد أن ضاقت بنا عربة
البولمان في الدرجة الأولى .

وقد أخذنا من الأماكن ما أتيسر لنا ، ففرقت مصادفة
القطار بيني وبين فريد ، وجلست إلى زوجي نتحدث حيناً
ونسكت حيناً ولا نتاح لنا القراءة ، ثم حمل الينا غداؤنا ولما
فرغنا منه أومنا إلى شيء من راحة . ولكني لا أكاد أدخل إلى
نفسي حتى أذكر ما لقيت من ليلتي وما كان بيني وبين صديقي
ذاك العزيز من حديث غريب ، وأحاول أن أتمسك لذلك الحديث
تأويلاً ولكني أصرف عن ذلك صرفاً رقيقاً عنيماً في وقت واحد ،
فهذا صوت صديقي يبلغ أذني عذباً رقيقاً بشيع فيه الحنان ،
وهأنذا أفزع لذلك أشد الفزع ، وأكاد أتحدث عما أجد إلى
زوجي . ولكن بدلاً رقيقة رقيقة تمس كتفي وصوتاً حلواً نفاذاً
يقول لي : « لا بأس عليك ! ما الذي يروعك وأنت حديث عهد
ببي ؟ ألم أكن أتحدث إليك منذ ساعات قصار ؟ » . قلت :
« بلى ! ولكنه الحلم فيما قدرت ولست الآن نائماً » . قال :
« بلى هو الحلم فيما قدرت زوجك لا فيما قدرت أنت . ولولا
أنك تحدثت إلى زوجك عما تحدثت إليك وأنها قالت لك ما
قالت ، لأنفق ما شاء الله من الدهر في هذه الدنيا لا تشك في
أنني لقيتك وتحدثت إليك وسمعت منك وأنت يقظان ،

ولأخفيت ذلك على الناس مخافة أن يتهموك بالكذب أو أن يظنوا بعقلك الظنون . فالآن فسل نفسك أنائم أنت أم يقظ ؟
وتحدث إلى زوجك واسمع منها رجوع الحديث ، وضع يدك في جيбок فداعب بها سبحتك تلك التي أهداها إليك صديقنا فلان .. وأخرج علبة السجائر وأشعل سيجارة . لو قد أتيتح للموتى أن يدخلوا لأخذت منك إحدى سجائرك هذه ، ولشاركتك في التدخين ولكن أنى للموتى أن يدخلوا ! وإنما هم ظلال ليست لهم أيد ولا شفاه ولا حلوق . « وأسرت يدي إلى جيبي فداعبت سبحتي وأخرجت علبتي وأشعلت سيجارتي وتحدثت إلى زوجي . ولكن يبدأ رفيقة تمس كتفي وصوتا حلوا يبلغ أذني وهو يقول : « أنت إذن يقظ لا نائم ، فاسمع مني وافهم عني ، واعلم أنني أتحدث إلى قلبك وعقلك جميعاً .

أذكر أثراً طالما تحدثت إليك به ، لأنني كثيراً ما سمعته من الشيوخ ؟ قلت : « الأولاد مبغلة مجينة ؟ » . قال : « هو ذاك ! وقد عرفني قبل أن أرزق الولد وأحتمل من أعساء الحياة ما يحتمل الآباء ، فهل رأيت مني بخلاً وجبناً ؟ » قلت : « اللهم كلا ! » . قال : « فلذلك لم تنس أنني غضاصبت الحكومة في مستهل الشباب ، وغضاصبت السلطان غير مرة بعد ذلك ، ولقيت في ذلك من لوم الأسرة ما لقيت ، فلم أحفل بلوم ولم ألتفت إلى عتب ، وإنما أديت الواجب كما كنت أعتقد أنه ينبغي أن يؤدي » . قلت : « هذا حق » . قال : « وقد رأيته

بعد أن رزقت الولد واحتملت من الاعباء ما يحتمل الآباء ، فهل رأيت مني بخلا ؟ » قلت : « اللهم لا ا » . قال : « فالحمد لله على أن الولد لم يكن لي مبخلة . ولكنك رأيت مني كما رأيت من نفسي جبناً في غير موطن من المواطن » . قلت : « لم أَرَجِبْناً وإنما رأيت تحفظاً واحتياطاً » قال : « فلين الموتى يحبون أن تسمى الأشياء بأسمائها ، فقد رأيت مني ورأيت أنا من نفسي جبناً في غير موطن من المواطن وقد عبرت عنه بهاتين الكلمتين : التحفظ والاحتياط معتدراً عن نفسي إلى نفسي ومخادعاً لها عن الحق ، فلم يغن هذا عني شيئاً وإنما استحييت من نفسي ومن الناس . ولو قد أظهرتك أسرتي على ما كتبت من المذكرات لرأيت من ذلك ما يرضيك . وإذن فقد كان الولد مجبنة لي ، فأنا أستغفر الله وأرجو أن تستغفر الله لي من هذا الجبن » . قلت : « فقد غفر الله لك لأنك تبت من هذا الضعف توبة صادقة نصوحاً » . قال : « لو غفر الله لي لما وجدت ما أجد إلى الآن من ألم وندم وعذاب يمزق الضمير » . قلت وقصد أسرعت إلى شفني ابتسامة حاولت أن أخفيها : « يعجبني هذا التعبير لتمزيق الضمير » . قال : « ألم أقل لك إن الموتى يحبون أن تسمى الأشياء بأسمائها ! إنك ترى في هذا التعبير مجازاً رائعاً ولكننا نحن نرى فيه حقيقة واقعة . فضماثرنا يمزقها السلام تمزيقاً ويفرقها الألم اللاذع تفريقاً . والآن وقد تحدثت إليك عن نفسي أحب أن أتحدث إليك عن نفسك أنت » . قلت : « وماذا تعلم من أمر نفسي ؟ » قال : « أعلم أنها كئيب ، وأعلم

أنها بائسة ، وأعلم أن المأساة لا ذعاً يقضها ويمضها ، وأعلم أنك
تظهر ما تظهر من إشراق الوجه وابتسام الثغر ورشاقة الحديث ،
ثم تنسدد إذا خلوت إلى نفسك بيتاً طالما اشتركتنا في
الإعجاب به :

وتجلدي للشامتين أريهسمُ أني لريب الدهر لا أتضعضع
قلت : « فاني لا أحب أن يقرأ الناس ما في نفسي » . قال :
« هيهات ! تستطيع أن تخفي ذات نفسك على الأحياء ، فأنما
الذين يعرفونك ويألفونك من الموتى فليس يخفي عليهم من ذات
نفسك شيء » .

وهمت أن أتكلم أو بعبارة أدق همت أن أرد عليه بعقلي
لا بلساني ، ولكنه مسكتني مساً رقيقاً وقال في صوت حلو
يشيع فيه الألم : « لو عرف الأحياء أنهم يؤذون الموتى حين
يجزعون أو يفزعون أو يراعون للمكوا أنفسهم ولسخروا من
آلام الحياة فإنها أهون من أن تؤذي النفوس ، أو تحزن القلوب .
ولكننا نراكم جزعين فزعين مروعين للسير من الأمر ، فنرتبي
لكم ونشفق عليكم ، ويؤذينا شقاؤكم في ذوات أنفسكم . ليتكم
تعلمون أن للموتى حساً دقيقاً وشعوراً رقيقاً وذوقاً مرهفاً وإن
الموت لا يقطع ما بينهم وبينكم من الصلات إلا بعد وقت
لا نعرف أقصر هو أم طويل . ألم تقرأ في الآثار والأخبار أن
الميت يعذب ببكاء أهله عليه ؟ » . قلت : « بلى » قال : « فأنما
يعذب الموتى بحزن أهلهم عليهم لكثرة ما يرثون لهم ، ويأسون
لما يجدون من حزن . وإن رثاءنا لكم ولإشفاقنا عليكم حين تحزنون

عليها ليعذبنا أضعاف ما يعذبكم ما تجدون من ألم الفراق . ليت
الأحياء يعلمون أن الموتى إنما يتركونهم لخير مما هم فيه ،
فلا يشيعوهم بهذا الحزن الممض والألم الذي يقض المضاجع
وينقص الحياة . قلت : « فلن الأحياء لا يحزنون على الموتى
حين يموتون بمقدار ما يحزنون على أنفسهم لما يجدون من افتراق
الشمل وانقطاع الأسباب بينهم وبين من أحبوا » . قال : « ما
زلت كما عهدتك مستقصياً متعمقاً غالباً في التحليل والتعليل ،
والأمر مع ذلك أيسر مما تظن . فليكن حزنكم علينا أو على
أنفسكم ، فإن هذا الحزن يؤذينا دائماً أشد الأيذاء وأوجعه .
ولقد شهدت اسرتي ثم شهدت أصدقائي بعد أن فارقت داركم
الدنيا ، ثم رأيت بكاء الباكين ونحيب المنتحبين ، ثم رأيت اللوعة
التي تكتم في الصدور والحسرة التي تضمر في القلوب والدموع
التي تمسك في الجفون ، فما أعرف أنني لقيت قط من الألم
أثنياء حياتي كلها مثل ما لقيت في تلك الليلة ثم في
ذلك اليوم من بعدها » . قلت : « ولن يؤلمك الحزن المنافق
واللوعة الكاذبة والحسرة التي تظهر في الوجود دون أن يكون
وراءها شيء » . قال : « هيهات ! إن الموتى ليصفحون عن
كثير . ولقد تعلمت في الحياة من الصفح عن المنافقين والإغضاء
عما يتكفون من الرياء والكذب ما أنت في حاجة إلى أن تتعلمه
ولو قد تعلمته لأرحت نفسك من عناء كثير . إن المنافق إنما
يؤذي نفسه أكثر مما يؤذيك . فلو أنصفته لرحمته وأشفقت عليه .
أنظرن أنه من الهين أن يكذب الإنسان على نفسه في كل قول يقوله

وفي كل عمل يعمله ، وفي كل خفقة من خفقات قلبه ، وفي كل
خلجة من خلجات نفسه ، يفرح قلبه ووجهه كئيب ، ويحزن
قلبه ووجهه مبتهج . يقول ونفسه تنكر ما يقول ويعتقد ولسانه
ينكر ما يعتقد . وكل ذلك يكتب له ويحصى عليه ، حتى إذا خلا
إلى نفسه مزقه الندم إن كان له ضمير ، فإن لم يكن له ضمير
فخلوته إلى نفسه نفاق كما أن لقاءه لغيره نفاق ، فهو منافق
مع نفسه ، منافق مع الناس ، حتى إذا فارق الدنيا عرضت
عليه من نفاقه صور يا لها من صور ! لا تستطيع عقول الأحياء
أن تتصورها ، ولا تستطيع قلوبهم أن تصبر لها ، ولا تستطيع
لغاتهم أن تصفها . وإنني لأرى بعض الأتقياء من الذين أسعدهم
النفاق في حياتهم الأولى فأتمنى لهم عطفاً عليهم وبراً بهم أنهم لم يخلقوا .
لا تبتئس إذن لنفاق المنافقين ، ولكن ارحمهم وارث لهم
وتمنّ أن يتوب الله عليهم في حياتهم قبل أن يموتوا فيصبح
أملهم في التوبة أوهن من نسج العنكبوت . ولتعد إليك وإلى
هذا البيت الذي تنشده كلما خلوت إلى نفسك حين يلم بك
بعض ما تكره من الأمر . فتظهر الرضا وتضمّر السخط وتعلن
الابتهاج وتسر الاكتئاب . فهل علمت أن أشمت الناس بالإنسان
إنما هي نفسه الخفية التي لا يظهر عليها أحد ، وأن الإنسان
خلق أن يتجلد فيما بينه وبين نفسه قبل أن يتجلد فيما بينه وبين
الناس ؟ وما يعينك أن يظن الناس بك الظنون ويقولوا فيك
الأقوال إذا عرفت نفسك وعرفت نفسك ، فلم تنكرها إذا
خلوت إليها ، ولم تنكرك إذا خلت إليك ! . إن شئنا نفس

المرء به هي أصل الشر ومصدر الداء والطريق إلى كل موبقة من الأمر . إن المكروه يلم بك فتجزع له وتضيق به وتكلف للناس صبراً وجلداً ، ولكنك قد ضعفت في دخيلة ضميرك فلم تخف الجزع على نفسك ، وإذا هي تنظر إليك ساخرة ، ثم تنظر إليك مشفقة ، ثم تنظر إليك مضللة ، ثم تنظر إليك محاولة أن تسليك وتلهيك ، وإذا هي تلمس لك المعاذير السكاذبة والتعلمات الباطلة لتسليك عما تجد من الحزن ، وتحط عنك ما يثقلك من الإصرار . ثم لا تلبث أن تغريك بالناس التسلية والتلهية لنفسك أملك وتخفف من همك ، فتفتح لك أبواباً من الشر وتمهد لك طرقاً إلى الإثم . ثم ما تزال تدفعك من باب إلى باب ومن طريق إلى طريق حتى تنسيك ما كان يثقلك من الحزن والألم ، ولكن بعد أن تكون ورطتك في آلام وآثام أشد ثقلًا وأعظم نكراً مما كنت فيه . ولو قد لقيت المكروه شجاعاً جلدًا أمام نفسك ، غير حافل بما يظن الناس وما يقولون وغير خارج عن طورك ولا مغير لسيرتك فيما بينك وبين ضميرك ، لاحتفظت بمرءتك كاملة برجولة موفورة ، واجنبت ضميرك كثيراً من هذا الدنس الذي لا يليق بكرام الناس .

قلت : « لقد أصبحت بعدي فيلسوفاً » . قال وهو يتسم : « إن الموت يعلم الفلسفة لكثير من الأحياء فما له لا يعلم الفلسفة لقليل من الموتى ! »

وأقبل فريد ينثني بأن في العربية مكانين خاليتين ساعة وبعض ساعة ، وأنه يستطيع أن يقرأ لي بعض ما حمل من الصحف

والمجلات ، فأثاقل . ولكن صديقي يقول لي : « لا بأس !
استمع لما سيقرا عليك فريد أو لا تستمع له ولكن لا ترده خائبا ،
فانه يلتمس هذه الفرصة منذ ركبتم القطار . إنه يعرف حرصك
على القراءة ، ويريد ان يمنحك منها أكثر ما يستطيع أو أكثر
مما تطيق . »

فأنتقل مع فريد وإذا هو ينشر صحفه ومجلاته ويقرأ ما
شاء الله أن يقرأ متنقلا بين الأدب والسياسة والفن ، وأنا أمنحه
أذني وأصرف عنه نفسي ، فقد مضيت في أحاديثي مع صديقي
لا أكل أنا ولا يعمل هو ، وفريد يقرأ ويقرأ حتى إذا دنا القطار
من ليون عدت إلى مكاني . ويسألني فريد عن بعض ما قرأ
لي ، فأبتسم وأقول له في صوت يكسره الحياء : لقد نمت
عنك وعمما قرأت أكثر هذا الوقت . وصديقي يشسهد
ما نمت عن فريد ولا عما قرأ ، وإنما شغلت بحديثه عن فريد
وعما قرأ .

وقد اتصل الحديث بيني وبين صديقي فنونا وألوانا ،
قليل منها يمكن ان يقال ، وأكثرها ينبغي أن ينطوي عليه
الضمير .

وأقبل الخادم يحمل إلينا عشاءنا ، وأقبلت على طعامي
وعلى حديث زوجي غير منصرف مع ذلك عن هذا الصديق
العزير لحظة ، وإنما هي الحياة المزودة التي أحيانا في كثير من الأحيان ،
أمنح جلسائي نصف نفسي وأمنح نصفها الآخر لجلساء
آخرين أعرفهم أنا ولا يعرفهم الناس ، أقول لهم وأسمع منهم

وأباد لهم ضروب الحوار والناس يحسبونني معهم قد منحتهم عنايتي
كلها كما منحوني عنايتهم كلها . وهل في الحق أن أحداً من الناس
يمنع أحداً من الناس عنايته كلها إلا في أقل الأوقات وأشدّها ندرة
وأقلّها تجدداً !

ويبلغ القطار باريس آخر الأمر ، وقد هم الليل أن يتصف
وننهض لنهبط إلى الأرض ، وإذا صديقي يقول لي مداعباً :
« أتذكر صديقنا ذلك الذي عاود إلى باريس لأول مرة بعد أن
أتمّ الدرس فيها وقضى في مصر عاماً أو عامين ، فلما بلغ هذه
المحطة لم يكذب يطمأ أرضها بقدميه حتى انكب عليها فقبلها
بشفته ؟ » قلت : « يرحمه الله ويرحمك ! » . قال : « فلما
سألتك في باريس . فالأسباب لم تقطع بينه وبين الحياة الدنيا بعد ،
وهو يؤثر باريس ميتاً كما كان يؤثرها حياً » .

وزوجي تلح عليّ في أن أسرع في الخطو حتى لا نعوق من
وراءنا من الناس . ولكن صديقي يقول لي في صوته الهادئ
الحلو : « لا تعجل فليس في العجلة خير ، انتظر حتى نضرب
للقاء موعداً » أتذكر الكلوزيري دي ليلا ؟ . قلت : « وكيف
لا أذكر ! » ، قال : « سنلتقي فيها أثناء زيارتك المقبلة
لباريس إن شاء الله ، وسيشهدنا الخادم الذي كان يتلقانا معنا
ينا . أتعرف أنه قد مات ؟ » قالت زوجي : « قد بلغنا السلم ،
فاستأن حتى أبلغ الأرض وأمنحك يدي » . قال صديقي : « موقفاً
إن شاء الله في سفرك وإقامتك » .

وأبلغ الأرض أسعى مع زوجي مثاقلاً أقول لها : « أليس

غريباً أن نكون في باريس والفنى لا يعلم أين نحن ؟ ، وهم أن
تجيب ، ولكننا نسمع صوت الفنى مرتعشاً يقول : يا جيبى .
ثم يلقي بنفسه بين أذرع أربع ثم تكون قبّل تؤدى كثيراً من
المعاني والألسنة معقودة والقلوب واجفة . ثم أقول للفنى ونحن
نسعى : كيف عرفت أننا في هذا القطار ؟ قال سألت عنكما في
الفندق فأنبتت بمقدمكما ، لا شوقاً إليكما بل رفقاً بكما ، فليس
لكما في الفندق مكان ، وقد احتجز لكما أصحابه غرفة في فندق
آخر تفضيان فيه الليل ، فاتبعاني أصحابكما إليه .

سنستجيب لهذه الدعوة ما في ذلك شك : قلت ذلك وأنا
أعجب فيما بيني وبين نفسي لهذه الدعوة التي كانت تنتظر
في باريس دون أن يعلم الذين أرسلوها إلينا أننا قادمون إلى
باريس . أعجب لذلك بعد أن أنفقت يومين متحدثاً إلى
صديقي ذاك الذي فارق الحياة . فلا أكاد أودعه عند سلم
القطار حتى أعلم بعد قليل أن جماعة أصدقاء جان زي قد أرسلت
إلى الفتى دعوة للأسرة كلها ترحب فيها أن نشهد الحفل الذي سيقام
في السوربون لوداع جان زي . وقد كان جان زي وزيرا
للثريّة الوطنيّة في فرنسا أعواماً متصلة قبل الحرب ، وزار مصر
سنة ١٩٣٨ وعرفته في القاهرة واستقبلته في الجامعة وكنت
عميداً لكلية الآداب . ثم اتصلت بينه وبينى أسباب من المعرفة
لا تبلغ الصداقة ، ولكنها على ذلك ليست بتلك المعرفة العابرة
التي لا يكثر لها المتعارفون . وقد لقينته في فرنسا سنة ١٩٣٩
لقاء قصيراً أحسست فيه إلحاحاً في العناية بي قلما يظهره الساسة
الفرنسيون لأجنبي زائر لباريس . ثم كانت الحرب وعدت إلى

مصر وشغلت عن جان زي . وان كنت قد أعجبت به حين أقرت في الصحف أنه استقال من الوزارة ليؤدي واجبه الوطني في ميدان القتال . وأملت الكارثة بفرنسا وكان الانقلاب السياسي ، فشرد أنصار الجمهورية وقبض على زعمائهم ، وكان من الذين قبض عليهم هذا الوزير الشاب .

ثم انجلت الغمرة عن فرنسا ، وعلم الناس أن جان زي قد سقى في سجنه حتى أوشكت الحرب أن تنتهي . ثم أقبل الجنده عليه ذات يوم فأخرجوه من السجن وأنبأوه أن الحرية سترد عليه وأركبوه سيارة ومضوا به ، حتى إذا كانوا في بعض الطريق قتلوه ومضوا لوجههم لا يلوون على شيء .

ثم أذهب إلى فرنسا سنة ١٩٤٦ فألقى بعض الأصدقاء من الفرنسيين وأعرف منهم أن صلاة ستقام في معبد من معابد اللبروتستنت في باريس احتفالاً بذكرى جان زي ، وأن الأسرة والأصدقاء سيقع من أنفسهم موقعاً حسناً أن يروني في هذا الحفل ، فقد كسان الفقيد يضمرون لي مودة وتقديراً . فنشهد الحفل لا عن مجاملة فحسب ، ولكن عن وفاء فيه كثير ممن الإعجاب .

ولا يسكاد الصيف ينتهي في ذلك العام حتى تهدي إلي جماعة أصدقاء جان زي كتابه الذي أنشأه في السجن . فأقرأ كتاباً من أروع ما يكتب الكتاب ويقرأ القراء ، فيه مراجعة للنفس ومحاسبة للضمير واستحضار للماضي وأمل في المستقبل وإيمان بمصير للوطن . وفيه صبر على المكروه واحتمال للخطب

وشجاعة على النوائب وثبات على الرأي وإساء للضمير ورفض
للترغيب والترهيب واستخفاف بظلم الظالمين واستبداد
المستبدين وسخر من غرور المتسلطين وطغيان المتجبرين . وفيه
مع هذا كله وفاء للزوج أي وفاء ورحمة للولد أي رحمة
وحب للأصدقاء أي حب . وفيه تحليل كأدق ما يكون التحليل
لعواطف القلب وخواطر العقل وخلجات النفس وعكوف الضمير
على نفسه واتصال الضمير بالضمير . وفيه استعراض لآماله قبل أن
يكون وزيراً لأعماله وما أكثر أعماله وأقومها حين كان وزيراً ،
ونقد لأعمال الذين جاءوا بعده من أعوان العدو وانصار الاحتلال
والدعاة إلى التعاون مع المحتلين ، وأحلام عذاب بما
ميسأتف من النشاط حين يوضع عنه الإصر وتخط عنه الأغلال
وترد عليه الحرية ويعود إلى أهله ووطنه سالماً موفوراً . وفيه
وصف أي وصف لظلمة السجن التي تتصل في الليل والنهار ،
والتي لا تحد آفاق الأبصار وحدها ، وإنما تحد آفاق الضمائر
والعقول أيضاً ، ووصف لما كان ضميره يبذل من حيلة وجهد
ليرسل من أعماقه نوراً ضئيلاً يبدد هذه الظلمة بعض التبديد .
فمن مداعبة للأمل إلى ملاعبة للعلم ، إلى مخادعة للنفس ،
إلى محاسبة لحراس السجن ، إلى مخاشنة لمسدير السجن وممثلي
السلطان ، إلى رياضة في الغرفة الضيقة حين تغلق عليه أبوابها ،
إلى رياضة في الفناء الواسع حين يتاح له السعي فيه ، إلى استثمار
لقطعة صغيرة ضيقة من الأرض ينفق الجهد كل الجهد
في حملها على أن تخرج من النبات والبقل ما يتيح لعينه بهجة

اولنفسه رضا ويرثه عليه في حياته المادية بعض الترفيه . وفيه
بعد هذا كله ذكر لتطوافه في الأرض ومياحته في البلاد ،
وقد ذكر مصر بين البلاد التي ذكرها ، وذكر بالخير نفراً
من المصريين كنت من بينهم ، فعرفت أن ما كان بيني وبينه
من الصلة لم يكن عابراً ، وأن عنايته بي لم تكن صادرة عن
عفو الخاطر . وأثر في نفسي أشد التأثير أن يكون لحياتي
الضئيلة في نفسه الكبيرة بعض الأصداء .

وأعود إلى فرنسا من قابل فسادعى إلى حفل يقام في السوربون
لذكره الثانية ، فأشهد هذا الحفل وأسمع ما شاء الله أن أسمع
فيه من أحاديث الساسة والأدباء الفرنسيين وغير الفرنسيين .
وقد تعجلت السفر إلى فرنسا هذا العام ولم يكن يخطر لي أن
سأكون منه على ميعاد في هذه الإلمامة القصيرة التي أُلْمِنتُها
بباريس . ولسكني لا أكاد أبلغ باريس حتى أجده هذه الدعوة .
وحتى أشعر بأن لي مع الأصدقاء المونى شأنًا في هذا العام .
فأسعى إلى الحفل مصباحاً ، وأرى صحن السوربون قد
اكتظ بالساسة والأدباء الفرنسيين ، وأعلم أن جثة جان زي
قد أنفقت الليل مع شهداء الجامعة في مقبرة الكنيسة التي
تجاور السوربون . فلما أصبحت أخرجت إلى الأصدقاء
والمحبين والمؤمنين بالحريّة ومقاومة الظلم والمنكرين لبغي البغاة
وطغيان الطغساء تسمع منهم وتقول لهم . وقد سمعت منهم
كثيراً وقالت لهم أكثر مما سمعت . تحدث إليها وزير الحريّة
الوطنية كما يتحدث الناس إلى الناس ، وتحدث إليها فرنسا كلها .

يقلوب مثلها وبالموسيقى كما تتحدث الأم العطوف الرووم إلى
ابنها البر الوفي .

وقد استمع الناس للناس وهم يتحدثون ، واستمع الناس
لقلوبهم وهي تتحدث ، واستمع الناس لهذا الرفات الضئيل وهو
يتحدث إلى القلوب والعقول أبلغ الحديث وأعماقه أثراً . وكان
الناس يحتفظون في أثناء هذا كله بما ينبغي لهم من الوقار والتجمل
والاحتشام . ولكن قوماً أقبلوا يحملون النعش ولا يكادون يلمسونه
بأيديهم حتى تندفع موسيقى الحرس الجمهوري فتعزف نشيد
المقاومة :

« أيها الصديق أسمع للغربان تطير طيرانها الأسود فسوق
سهولنا ! أيها الصديق أسمع هذه الصبحة المكظومة التي يدفعها
الوطن وهو يسلك في الأغلال ... »

هنالك تخرج النفوس عن أطوارها ، وتتخفف من التجلد
والتجمل والاحتشام ، وتطاق للدموع حريتها فتسجم على الوجوه
في غير تردد ولا توقف ، ولا يبقى أحد من شهود الحفل إلا
اندست يده في جيبه ثم خرجت وفيها مندبل يكفكف به دموعاً
لا تتردد أن تكف . وكذلك خرج جانزي من السوربون تودعه
القلوب وتشيعه الدموع ، وتختصر موسيقى الحرس الجمهوري
أروع اختصار وأبلغه ما يكون من الحديث بين الأمسوات
والأحياء ، وما يكون من الحديث بين الأوطان والمواطنين مهما
تختلف العصور والظروف والأطوار .

وأعود إلى الفندق وقد رضيت عن هذا الحزن الذي أغنى

قلبي ونقى نفسي ، وعن هذه الدموع التي غسلت ضميري مما
تعلق به من صلاته بالأحياء . وأشعر أنني سأستقبل ما زرت باريس
من أجله من العمل « جندع البصيرة فارجح الإقدام » ، كما يقول
الشاعر العربي القديم .



ولكن الحياة في باريس عناء وغناء ، لا ينقطع ما تفسر ض
عليك من الجهد ، ولا ما تثير في نفسك من المتاع . ولست
اتحدث عما في باريس من مشقة مادية أو هو مادي ، فلي
والحمد لله صدوف عن هذا اللهو ، ولي والحمد لله من يريحي
من مشقة الحياة المادية . وإنما اتحدث عن العناء والغناء اللذين
يتصلان بالقلب والعقل والنوق ، فهما لا ينقطعان منذ تصل إلى
باريس إلى أن تفارقها . وأكبر الظن أنهما يصحبانك بعد فراقها
لأنك لا تتركها إلا وقد تزودت بالشيء الكثير مما يثير الأمل ويذكي
اللوعة ، ومما تعلق به الآمال ونحيا به القلوب . لا تكاد تنظر
في الصحف إذا أصبحت حتى ترى فيها ما يدعوك إلى المعرفة
ويغريك بالعلم ويحثك على الاستقصاء . ودع السياسة لأصحاب
السياسة أو ألم بالسياسة الساماً رقيقاً لتعرف ما يحدث في
فرنسا وما يحدث في أقطار الأرض ، فليس للرجل المثقف عن
ذلك غنى . ولكنك سترى في الصحيفة التي تنظر فيها ما
يدعوك ويغريك ويلح عليك : فهذا نقد لكتاب لا تكاد تنظر

فيه حتى تشعر بالحاجة الملحة إلى قراءة هذا الكتاب . وهذا فقد
لقصة تمثيلية لا تكاد تنظر فيه حتى تشعر بالحاجة الملحة إلى شهود
هذه القصة . وهذا دعاء إلى حفل موسيقي ، وهذا دعاء إلى
معرض من معارض الفن ، وهذا عرض لنظرية من نظريات العلم
أو لمسألة من مسائل الأدب أو لخصومة من خصومات الفن .
وأنت لا تفرغ من صحيفة أو صحيفة إذا أصبحت حتى ترى
نفسك حائراً بين ما ينبغي أن تقرأ وما ينبغي أن تشهد وما ينبغي
أن تسمع وما ينبغي أن ترى . وأنت تستشير وقتك فإذا هو
يضيئ أشد الضيق بكل ما تحب . فلا بد لك إذن من أن تختار
وما أعسر الاختيار ! ولا بد لك من أن تلغي وما أشق
الإلغاء ! وأنت تستشير جيبك فيما ينبغي أن تشتري من الكتب
وفما ينبغي أن تشهد من التمثيل وتسمع من الموسيقى ، فإذا
هو يقصر عن إسعافك لبلوغ كل ما تحب . فلا بد من أن تختار
ولا بد من أن تلغي ، وما أشق الاختيار والإلغاء جميعاً !
وقد تخادع نفسك فتسجل كل ما تحب في دفتر من دفاترك تعجل
بعضه وتؤجل بعضه الآخر إلى أن يتاح لك الوقت ويسعفك
المال ، وتعلق أمالك بأن الوقت سيتيح لك ما تشتهي ، وبأن
تدبير المال سيبلغك ما تحب . ولكنك لا تكاد تمسي وتنتظر في
صحنف المساء حتى ينهار ما بنيت وتنقش آمالك هباء كما تتبدد
سحب الصيف ، فقصداً أضيفت كتب إلى كتب ، وأضيفت تمثيل
إلى تمثيل ، وازددت أنت حيرة إلى حيرة وعجزاً إلى عجز
فاستسلمت للقضاء ، وأخذت من لذة المعرفة واللوق ما أتاح لك

وقتك ومالك ، وجعلت تخادع نفسك بآمال تعلم حق العلم أنها
سكاذبة خائنة لا تغني عنك شيئاً ، ولكنك تتمثل على رغمك قول
للشاعر القديم :

ما أضيق العيش لولا فسحة الأمل

فهذا عناء لا يخلص منه الرجل المستبصر منذ يبلغ باريس إلى
أن يذارقها . أمامه متاع كثير أكثر مما يطيق ، وهو مع ذلك
شره يريد أن يلتهم كل شيء ، فلا يأخذ مما أمامه إلا
مقدار مهما يعظم فهو ضئيل . ولكن هذا المقدار الضئيل يشغل
قلبك وعقلك وذوقك ، ويتيح لك من اللذة العليا ما يجب
إليك الحياة ويغضها إليك في الوقت نفسه : يجب إليك الحياة
لأنه حلو رائع . ويغض إليك الحياة لأنه يشعرك شعوراً مسراً
محمضاً ، بأنك أضيق باعاً وأقصر ذراعاً من أن تبلغ نفسك حاجتها
من هذا المتاع النقي الرفيع .

وأنت تقيم في باريس ما شاء الله أن تقيم مقسماً بين هذا
الفرح والحزن ، موزعاً بين هذا الإقدام الذي يبلغ التهور والإحجام
الذي يبلغ الجبن . تريد أن تحيط بكل شيء وتقتصر عن أن تحيط
إلا بالقليل . فأنت فرح محزون ، وأنت راضٍ ساخط ، وأنت
باسم عابس ، وأنت مقبل صادم ، وأنت من هذا كله في
عناء ، حتى إذا تركت باريس لم تفصل عنها بقلبك كله ولا
بعقلك كله ، وإنما تركت فيها من قلبك وعقلك شطراً قد
تعلق بهذه اللذات المتصلة الرائعة التي فرضت عليك الحياة وظروفها
أن تفارقها على كره منك . وأنت مع ذلك قد جمعت في

باريس ما أتيح لك جمعه من الكتب ، لم تستطع أن تقرأه
أثناء الإقامة ، فأجلت قراءته إلى وقت السفر وإلى ما بعد
السفر حين توثب إلى وطنك مسروراً أو محزوناً ، فتزيد بقراءته
سرورك وتسلي بها عن حزنك . وأنت تقرأ مسافراً ما وسعتك
القراءة ، فتتعم وتبتس وتتهيج وتكتشب ، حتى إذا بلغت أرض
الوطن العزيز لم تسكد تستقر حتى يسعى اليك الساعون وتسعى
أنت إلى الذين سعوا إليك ، ويأخذك سخف الحياة اليومية من
جميع أقطارك ، وإذا أنت لا تجد الوقت للاستمتاع بما حملت
من الكنوز إلا أن تسرقه استراقاً وتخلصه اختلاساً وتشق على نفسك
بما تطيق وما لا تطيق .

ومع أنني أعرف هذا كله لكثرة ما ألمت بباريس وما زلت
عنها ، فإني حديث عهد بهذا كله كلما زرت باريس وكلما رجعت
إلى مصر . لا أكاد أبلغ باريس حتى استقصي ما فيها من ألوان
المتاع العقلي ، فأسعد وأشقي ، وأجد في هذا التردد بين السعادة
والشقاء لذة توشك أن تكون مرذولة ، لأنني أقارف هذا الإثم
وأنا أعلم حق العلم أنني أحاول ما لا سبيل إليه ، وأني أجد نشاطاً
قد علمت ألف مرة ومرة أنه لن يغني عني شيئاً ولن يعود عليّ
إلا بالألم والشقاء .

كل هذا وقد ألغيت أعباء الحياة الاجتماعية في باريس
إلغاءً ، فلم أذكر زيارة من يجب أن أزوره ولا استقبال من
يجب أن أستقبله ، ولا ضيقي بالزيارة والاستقبال لكثرة ما
يفرضان عليّ من الحرمان . وأنا مع ذلك رجل من الناس يجب

أن أعيش كما يعيش الناس : يجب أن أزور وأن أزار ، وأن أقول للمزورين والزائرين وأسمع منهم ، وأشاركهم مخلصاً أو غير مخلص فيما يضطربون فيه من الأمور وفيما يخوضون فيه من الأحاديث . وقد أعمل الحيلة وأبذل الجهد وأتكلف فنوناً من الخداع حتى أظفر بالساعات أختلسها من الحياة الاجتماعية اختلاساً ، فأترك زوجي تقوم عني بما تستطيع أن تقوم به ، وأتقدم إلى الفندق في أن يكف عني الزائرين والسائلين ، وأخلصو إلى صاحبي أو إلى هذا الكتاب أو ذاك وهذه المجلة أو تلك فأنسى الدنيا وأهلها وأريح الناس وأستريح منهم ، وأحيا هذه الحياة الممتازة التي أخلص فيها للمعرفة . ولكني لا ألبث أن أرى هذه الساعات تنقضي بسرعة وقد أصبت فيها بعض ما كنت أتمنى ، وحيل بيني وبين خير ما كنت أتمنى ، وإذا أنا أشبه بمن نعم أثناء النوم بحلم لذيذ ثم انقطع عليه حلمه فجاءه ، فأفاق وفي نفسه على هذا الحلم حشرات . ولم تتح لي هذه الساعات الحلوة في هذه الرحلة القصيرة إلا مرة واحدة : كان ذلك في يوم من أيام الأحد بذلت في صباحه ما شاء الله أن أبذل من سعة الحيلة وبراعة التصرف حتى استخلصت لنفسني نصف النهار .

ثم أسأل صاحبي أفارغ هو لي فيما استخلصت من الوقت ؟ فإذا هو قد رتب أمره على أن يفرغ لنفسه وللبعض أصحابه ، وقد قدر اني سأشغل في هذا اليوم كما تعودت أن أشغل في أيام الأحساد . ولسكني أتكلف الحيلة حتى على صاحبي ، فأظهر له شيئاً من يسر وأغربه بأن يستمتع بحريته كاملة ، وألقي إليه

في شيء من الاستخفاء واللباقة أنني لا أكره أن أدخل إلى نفسي ساعات . ولكنه قد فهم عني وأظهر الغباء ، وهو يتكلف كما أتكلف ويتخفف من مشاغله كما تخفف من مشاغلي ، يسكره أن أدخل إلى نفسي كما أكره أنا أن أدخل إلى نفسي : وماذا عسى أن تصنع وحيداً إن أقبل زائر أو سأل سائل أو تحدث متحدث في التليفون ؟ فإذا زعمت له أنني سأقدم إلى الفندق في إراحتي من الزائرين والسائلين والمتحدثين قال : وماذا تصنع إن عرض لك ما لا تقدر أن تعرض لك أو احتجت إلى بعض الأمر ؟ ثم ينتهي هذا الحوار إلى أن يعرض عليّ صاحبي أن يبقى مني غير بعيد يخلو إلى نفسه كما أدخل إلى نفسي ، فإذا احتجت إليه دعوته . وهنالك يستبين له ولي كل شيء ، يفهم عني وأفهم عنه في هذه الصراحة الصامتة التي لا تحب أن تعلن نفسها باللفظ . ولا تكاد تفرغ من الغداء حتى أرانا قد خلونا إلى أنفسنا : صاحبي وكتابه أو مجلته وأنا .

وكذلك رأيتنا في ذلك اليوم وقد خلونا إلى مجلة من المجلات منذ انتصفت الساعة الثالثة إلى أن تقضت الساعة الثامنة ، لم نتركها حتى كدنا نأثني على كل ما فيها . ولكن الحياة الاجتماعية أقيمت علينا مع تمام الساعة الثامنة ، فانصرفنا عن هذه المجلة ولم نعد إليها على كثرة ما فكرنا في العودة إليها . وأكبر الظن أننا لن نعود إليها ، فقد ظهرت مجلات أخرى ليست أقل منها خصباً ولا إمتاعاً ، وسيفلنسا ما يقبل عما

يمضي : وكذلك الحياة : ساعات تقبل بما فيها من الأحداث
فتشغل عن ساعات تمضي بما فيها من الأحداث ، وتبقى لسي
للنفس من هذه وتلك أطراف تثير فيها كثيراً من حزن وقليل
من سرور .

ولم أَلَمْ بباريس في هذه المرة مستمتعاً بها أو ملتصقاً لما يلتصق فيها من الراحة واللذة والفراغ ، وإنما أقبلت عليها لبعض العمل ، وكان هذا العمل متصلاً شاقاً يستغرق كثيراً من الوقت في الصباح والمساء ، كما كان الغلو اليه والروح عنه يستغرقان كثيراً من الوقت . فكنت على هذه السن المتقدمة أشبه بالتلميذ الذي يغلو على مدرسته مصباحاً وينصرف عنها بعد أن يتتصف النهار ، ثم يعود إليها بعد الغداء لينصرف عنها إذا أقبل الليل . وكان رئيس اللجنة التي كنت أعمل فيها دقيقاً متحرجاً ، يدبر أمر زملائه وعملهم كما يدبر الأستاذ أمر تلاميذه وعملهم . فكان يحرص على أن يبدأ العمل في الموعد المضروب لبدئه وعلى أن ينتهي في الموعد المضروب لانتهائه . ولو كان في مصر لاتخذ لبدا العمل وانتهائه جرساً ينبه إلى البدء والانتهاء . وقد أضيف هذا العمل المعقد المتصل إلى أعباء الحياة الاجتماعية في باريس وإلى مشقة الانتقال وعسر الظفر بالسيارات حين نحتاج إليها ، فلم يترك لي من الفراغ ما يتيح لي قراءة الصحف واستقصاء ما فيها من الدراسات

والبحوث ، ولكنني مع ذلك لم أفقد الوسيلة إلى العلم ببعض ما
يصدر من الكتب والتقدم إلى صاحبي في شرائه لعلنا نستطيع أن
نقرأه في يوم من الأيام . ولم أعلم الوسيلة إلى شهود بعض
التمثيل أسيرىح إليه من جهد النهار : وشهود التمثيل في باريس
ظاهرة من الظواهر الخاصة التي لا تكاد تلاحظ في غيرها من
المدن الكبرى ، فليس يكفي أن تشاق إلى أن تشهد هذه القصة
أو تلك في هذا الملعب أو ذاك لتظفر بما تريد . وإنما أنت مضطر
إلى أن تحتال وتخطط وتحسن السعي حتى تشهد ما تريد أن تشهد
من القصص . فالملاعب في باريس كثيرة جداً مختلفة جداً
متمايزة في مذاهبيها وأغراضها وألوان ما تعرض على النظارة من
القصص ، ولكنها على ذلك كله مكتظة دائماً ، يستبق الناس إلى
احتجاز أماكنهم فيها كما يستبقون إلى احتجاز أماكنهم في
القطارات والسفن والطائرات . ولعلهم أن يجدوا من المشقة في
استبقاهم إلى شهود التمثيل أكثر مما يجدون من المشقة في استبقاهم
إلى وسائل الانتقال .

وأعرف جماعة من المقيمين في باريس من الأجانب والفرنسيين
كانوا يحسدوننا أشد الحسد ، لأننا شهدنا قصة تمثيلية من قصص
مولير ، وحاولوا هم أن يشهدوها فلم يجدوا إلى ذلك سبيلاً :
فأما نحن فقد شهدناها في مصر ، لأن فرقة «جوفيه» حملتها إلينا
وعرضتها علينا فيما عرضت من مسرحياتها في الأوبرا الملكية :
والباريسيون نظارة كلهم ، قد أصبح شهود التمثيل جزءاً
مقوماً لطبيعتهم ، حتى أصبحوا وكأنهم يرون الحياة كلها

مسرحية تعرض عليهم حين يصبحون وحين يمسون وحين يغدون
وحين يروحون . وأيسر شيء يحدث في شارع من الشوارع أو
زقاق من الأزقة يدعوهم إلى التجمع والتطلع والاستشراق ،
ثم إلى تبادل الرأي وتجاذب الاحاديث وإرسال النكت كأهم في
ملعب من ملاعب التمثيل . وقد أصبح من طبيعة الفرنسيين
والباريسيين منهم خاصة إذا التقوا وفرغوا من الحديث عن الجو،
أن يستأنفوا الحديث عما شهدوا في ملاعب التمثيل أو دور السينما،
وان ينقدوا اللاعبين واللاعيات نقداً مفصلاً لا آخر له، يتناول
فهم وسنهم وأشكالهم وأزياءهم إلى آخر هذه الاحاديث التي
لا تنقضي .

على أن هناك قصصاً تمثيلية تثير ألواناً من النقد لها خطرها ،
بعضها يتصل بالسياسة فيختصم فيه الناس كما يختصمون في
السياسة ، وبعضها يتصل بالأدب فيختصم فيه الأدباء دون غيرهم
من الناس ، وبعضها يتصل بالأدب والسياسة جميعاً . وقد شهدت
قصتين مثيرتين للخصومة السياسية : إحداهما تعرض في بيت
مولير وقد أنشئت حين تقدم القرن الماضي قليلاً بعد أن انهزمت
الثورة وانهارت الإمبراطورية وعاد إلى فرنسا نظامها الملكي مع
شيء من التطور ، وعنوانها : « الاسبانيون في الدانمرك » . وهي
قصة متقنة للكاتب الفرنسي الكبير ميرييه ، يعرض فيها مقاومة
الاسبانيين خارج وطنهم لنابليون . وتمثيلها رائع ما في ذلك شك .
ولذلك يعجب به الناس على اختلاف ألوانهم السياسية ، ولكنهم
بعد ذلك يختصمون اختصاراً شديداً في هذه القصة التي عمرت

قرناً وربع قرن : يرى بعضهم وهم المعتدلون أن بيت مولير قد أخطأه اللوق أو قد أخطأ هو اللوق حين عرض هذه القصة ، لأنها تصور انهزام الفرنسيين وشهامة الأوروبيين بفرنسا . ويرى الشيوعيون ومن لف لفهم من المتطرفين أن بيت مولير قد وفق التوفيق كله حين عرض هذه القصة في هذه الأيام ، لأنها تصور انهزام الاستبداد وإخفاق العدوان وانتصار الحرية . وهم فيما يقولون يكرهون الظلم والاستبداد وإن كانت فرنسا هي الظالمة المستبدة ، ويحبون الحرية والاستقلال وإن كانت هذه الحرية وهذا الاستقلال خصصاً لفرنسا ، فهم يوثرون الحرية على الوطن . وربما احتاط بعض كتابهم فلم يتردد في أن يعلن أن فرنسا بريئة من الظالمين والمستبدين . وأنهم لم تستجب لنابليون راضية وإنما أذعن له كارهة ، وأنها ابتهجت بسقوط نابليون ولكنها لم ترض عما كان بعد سقوطه من استبداد ، وهي على كل حال لم تحالف قط منيرلنك وشركاءه في الحلف المقدس من أصحاب الرجعية . يغمزون بذلك حكومتهم التي تشارك في حلف مقدس جديد قوامه الإنجليز والأمريكيون . وأنت تقرأ هذه الخصومة في الصحف وتسمعها في الأندية والمجالس الخاصة ، وتعجب لهذه الحياة العقلية التي يتصل فيها الفن بحياة الناس في كل يوم .

أما القصة الثانية فالخصومة فيها أدنى إلى الصراحة وأشد إمعاناً في العنف ، لأنها تتصل بالحياة التي يحياها الفرنسيون في هذه الأيام ، وهي قصة « الأيدي القذرة » للكاتب الفرنسي

المعروف جان بول سارتر، وكل ما يكتبه جان بول سارتر موضوع للخصومة منذ وضعت الحرب أوزارها . كان الناس يختصمون في فلسفته الوجودية ، ثم اختصموا في آرائه الأدبية ، ثم هم الآن يختصمون في آرائه السياسية منذ أعلن حربه الصريحة على فلسفة الشيوعيين وسياستهم . وهذه القصة نفسها ليست إلا مظهراً من مظاهر هذه الحرب ، فهي تصور فتى من أبناء الأغنياء قد ضاق بالغنى وما يفرضه على أصحابه من هذه الحياة الفارغة التي لا تغني عن أصحابها شيئاً ، فانضم إلى الحزب الشيوعي ، وهجر أسرته وثروته وبيته ، واندفع في تحمسه للحزب حتى شارك في نشاطه كله ، وأصبح فسادياً مستعداً لتنفيذ ما يصدر إليه الحزب من أمر ، لا يجادل في ذلك ولا يفكر في الجدل ، لأنه وهب حريته وحياته للحزب لا ينتظر على ذلك أجراً ولا يريد جزاء . والحزب يأمره باقتراف جريمة القتل على رئيس من رؤسائه ، لأنه يصانع الظروف ويجري مع ما تقتضيه السياسة فيحاول الائتلاف مع أحزاب المعتدلين . والفتى يتردد في اقتراف الإثم وبطيل التردد حتى يوشك الحزب أن يشك فيه ، ولكنه يرى من الرئيس الذي قضى عليه الموت ما يريبه مع زوجته الفتاة ، فيقترب الإثم ويرسل إلى السجن . ويشك الحزب في أنه قتله سياسة أو غيره . ثم يطلق سراح الفتى ويعود إلى حزبه ، فإذا الحزب يريد أن يتخلص منه ، وإذا فتاة من أعضاء الحزب تحاول الإبقاء عليه لعله أن ينفع الحزب في بعض أمره . ولكن الفتى يستكشف تغيراً في سياسة الحزب فهو يستجيب للظروف ويجاري

ما تقتضيه السياسة ويحاول أن يأتلف مع أحزاب المعتدلين كما كان الرئيس المقتول يريد أن يفعل، وإذن فقيم قضى الموت على هذا الرئيس ؟ وقد استيأس الفتي فهو لا يستطيع أن يعود إلى بيئته الأولى ، وهو لا يستطيع أن يجاري الحزب في سياسته المرنة ، وهو لا يعلم لماذا اقترف الإثم ، وهو لا يفهم للحياة معنى ، وهو من أجل ذلك يعرض نفسه لما يدبر له من الموت .

والقصة بعد ذلك تفصل المشكلات السياسية تفصيلاً وتعرض كثيراً من ألوان الخصومة بين المتطرفين والمعتدلين . فليس غريباً أن تختلف حكم الفرنسيين عليها اختلافاً شديداً . فالشيوعيون وأنصارهم ينكرونها ، والمعتدلون وأشياعهم يعرفونها ، ولكن أولئك وهؤلاء يشهدونها على كل حال . فريق يشهدا معجباً بها ، وفريق يشهدا ساخطاً عليها . والفريقان يختصمان في الصحف ويختصمان في الأحاديث . والأجنبي يرى هذا كله فيحمد الحرية ويطمح اليها ويسأل نفسه : أيمكن أن تمثل مثل هذه القصة في بلد خاضع للنظام الشيوعي ؟ أيمكن أن تمثل قصة تخاصم الفاشية والنازية في بلد خاضع للنظام الدكتاتوري ؟ ثم يحمد الديمقراطية الصحيحة التي تكفل للأفراد والجماعات من الحرية ما يتيح لهم أن يعتقدوا ويعلموا ما يعتقدون في غير مضارة ولا تعرض لتحكم السلطان، ويود لو أتيح لهذه الديمقراطية السمحة الحرة من سعة الأفق وإثثار الخبر ما يمكنها من تحقيق العدل الاجتماعي إلى جانب الحرية . فالمشكلة التي شققت بها

الإنسانية وما زالت تشقى وتستشفى بها فيما يظهر زمناً طويلاً ،
هي تحقيق التوفيق بين الحرية والمساواة دون أن يضحي بإحدهما
في سبيل الأخرى . والشيء المهم هو أن إقبال الفرنسيين
والباريسين منهم خاصة على شهود التمثيل والسينما وما يعرض
في الملاهي من أنواع الرقص والغناء والموسيقى ، ينشئ لهم
جواً حراً سمحاً طلقاً يتيح لهم أن يرتفعوا عن كثير من الصغائر ،
وأن يتنزهوا عن كثير من النقائص ، وأن يستمتعوا بمزاج
معتدل يعصمهم من الشطط في تقدير الأشياء والحكم عليها ،
ويحول بينهم وبين هذا الفراغ الذي يورث الأثرة ويدفع إلى
الغرور ويورط في كثير من الرذائل والآثام . فالرجل الذي يعمل
وجهه النهار ليرضي حاجته إلى العمل ، ويقرأ آخر النهار وكلما
يسرت له القراءة ليرضي حاجته إلى المعرفة ، ويشهد التمثيل
ومعارض الفن ويسمع للغناء والموسيقى ليرفه على نفسه ويرضي
ذوقه — هذا الرجل خليق ألا يفرغ لنفسه هذا الفراغ المنكر ،
و ألا يؤثر نفسه هذا الإيثار البغيض وألا يهدر حق غيره كما
لا يحب أن يهدر أحد حقه ، وأن يكون رأيه في الناس وفي
الحياة معتمداً مستقيماً غير ذي عوج ولا تنواء . وكل ذلك
ينشئ بيئة سمحة قوامها الأدب والمجاملة وحسن العشرة وكرم
المخالطة .

وقد تثار الخصومات الكثيرة في هذه الحياة . فالناس يختصمون
دائماً ، تفرض منافعهم عليهم هذا الاختصاص ، ولكنه اختصاص
لا يفسد الحياة ، ولا ينغص العيش ولا يدفع إلى المكر ، ولا

يعري بالكيد ، ولا يغير صداقة الأصدقاء ، ولا يجعل بعض المواطنين لبعض عدوآ . وما أكثر ما يختصم المختصمون في مثل هذه البيئة أشد الاختصام وأعنفه في الصحف أو في البرلمان أو في غير الصحف والبرلمان من وجوه النشاط ! ولكنهم على ذلك يلتقون وقد ألقوا عن أنفسهم ثقل الخصومة حين ألقوا عن أنفسهم ثقل العمل ، وخلصت قلوبهم وعقولهم وضباطهم لما يكون بين المثقفين حين يستقبلون مشهداً من مشاهد الفن أو موضوعاً من موضوعات الأدب أو خاطراً من خواطر الفلسفة . والشيء الذي لم أفهمه قط ولم أسغه قط ، هو أن الذين ينهضون بالأمور العامة عندنا قد ذهب أكثرهم إلى أوروبا وعرفوا من حياتها ما أعرف ، فليست هذه الحياة مقصورة على فرنسا وإنما هي شيء شائع في البلاد المتحضرة الراقية ، وهم يعجبون بهذا الذي أعجب به ويتحدثون عنه فيطيلون الحديث ، ولكنهم حين يفرغون لما يفرغون له من الأعمال العامة ينسون ما رأوا وينسون ما يجدون من الإعجاب والرضا ، ويستقبلون نشاطهم بشخصيات أخرى حظها من الحضارة المترفة المثقفة قليل ضئيل ، فهم يختصمون كما كان الناس يختصمون في بعض البيئات القديمة لا يراعون في خصومتهم رفقا ولا أناة ولا ذوقاً ولا وقاراً، وإنما هو العنف والإمعان في العنف حتى يصلوا إلى أبعد غاياته مهما تكن النتائج ، يخلطون أنفسهم بأعمالهم وأعبائهم ، ويسرفون في الإيمان بأنفسهم حتى يقسروا أنفسهم إذا نهضوا بالسياسة وأعبائها فانما ينهضون بأمورهم الخاصة لا بأمور غيرهم من

الناس .

ولست أعرف أشد غروراً ولا أعظم إمعاناً في الحق من رجل يعيش في العصر الحديث ويمارس الأعمال العامة على النحو الحديث ثم لا يفرق بين شخصه وبين أعماله العامة ، ولا يقدر أنه حين ينهض بالمنصب أو يمارس السياسة ليس إلا وكيلاً للشعب ينوب عنه في تدبير بعض أمره نيابة موقوتة قد تقصر وقد تطول ولكنها موقوتة على كل حال . ولو قد فكر الناهضون بالأعمال العامة هذا النحو من التفكير لأراحوا أنفسهم ولأراحوا الناس من شر كثير وعناء ثقیل . ولكن يظهر أن الحضارة لا تكتسب بالاختلاف إلى الجامعات والحصول على الدرجات والألقاب ، وإنما هي ثقافة يجب أن تثقف بها النفوس وأن تغلغل في أعماق الضائير ، وأن تؤثر أشد الأثر فيما يعمل الناس وما يقولون . وأكاد أعتقد أن الحضارة والثقافة في بيئتنا ما زالتا أشبه شيء بالطلاء الذي لا يستطيع أن يثبت لحر الشمس وتقلب الجو ، ولا يكاد يمتحن حتى يسدوب ويتكشف عما وراءه من هذه النفوس القديمة التي لم تهذب تهذيباً أصيلاً ، وإنما هذبت تهذيباً متكلفاً طارئاً لا يقدر على مقاومة المنافع والآراب والأحداث . ولم أشهد في باريس هذا اللون من جد التمثيل وحده ، وإنما شهدت لوناً آخر من هزل التمثيل ، فضحك مع الناس حين كنت في الملعب ، وضحك وحدي حين خلوت إلى نفسي ، وما زلت أضحك بين حين وحين كلما ذكرت هذه القصة ، وكثيراً ما أذكرها في مصر .

وما أريد أن ألخص القصة ، فلست أملني فصلاً في النقد ، وإنما أريد أن أعود إلى ما كنت فيه من الحديث عن هذه الحياة السمحة التي يحياها المتحضرون الذين هذبت عقولهم وقلوبهم تهذيباً أصيلاً ، فنظروا إلى الحياة وأحداثها نظرة فيها كثير من الرفق والإسباح والبراءة من التحرج والتزمت والتضييق على النفس وعلى الناس . فالقصة التي شهدتها تعرض على النظارة مجلساً من مجالس القضاء يحاكم فيه بريء قد اتهم بأنه قتل زوجته ليخلص لحب خليلته . وخطيلته منهمة بأنها قد شاركته في بعض هذا الإثم . وقد جلس القضاة وجلس المحلفون وجلس النيابة والمحاماة ، وجعل رئيس المحكمة يدعو الشهود ويسألهم ويحاورهم ويخلى بينهم وبين حوار الاتهام والدفاع . وليس لصاحب القصة من هذا كله أرب إلا أن يرفه على النظارة بإضحاحهم من بعض المظاهر الفكاهية التي لا تخلو منها مجالس من مجالس القضاء . فالرئيس الشيخ ذكي لبق ماكر ماهر، ولكن الشيخوخة قد اشتطت عليه ، وظهر أثر ذلك في كلامه حين ينطق وفي ملاحظاته حين يلاحظ على الاتهام والدفاع ، وفي حوارهِ للشهود في شيء من السأم والاستخفاف من ورائه الجد كل الجد . والنيابة مندفعة في تكديس التهم بعضها فوق بعض . والمحاماة مندفعة في تزييف هذه التهم بما يساغ وما لا يساغ . والشهود مختلطون فيهم كثير من الخوف وكثير من الجهل وكثير من الدعابة مع ذلك . والنظارة يضحكون من هذا كله ومن هؤلاء جميعاً . حتى إذا أقبلت أم المتهممة وزعمت

للمحكمة ان خليل ابنتها ليس وفيّاً لخليلته ، وأنها رأته يسدّاعب فتاة أخرى ، ثارت الغيرة بين العاشقين ، وحاول الرئيس أن يرد الأمر إلى الهدوء فلم يزد إلا اضطراباً واختلاطاً ، حتى صار من العسير أن تمضي المحكمة في المحاكمة ، وصار ممن العسير أن يمضي الممثلون في التمثيل ، فقد اختلط الأمر على المحكمة ، وأغرق النظارة في الضحك ، حتى لم يبق بد من رفع الجلسة وإرخاء الستار .

فهذا فصل من فصول هذه القصة يضحك النظارة فيه من القضاء دون أن يكون في ذلك غض من قدر القضاء أو استخفاف به ، ودون أن يجد القضاء في ذلك حرجاً أو جناحاً . وليس ممن شك في أن كثيراً من القضاة على اختلاف درجاتهم ومنازلهم قد شهدوا وما زالوا يشهدون هذه القصة التي لا تزال تمثل فيما اعتقد ويضحكون كما يضحك غيرهم من الناس ، لا يجدون بذلك بأساً ، ولا ينكرون على الكاتب والممثلين أنهم يسخرون من القضاء على هذا النحو البريء .

فأين نحن من هذه الحرية السمحة ؟ وكيف لو عرض كاتب ومثّل فرقة مجلساً من مجالس القضاء غالباً في الدعابة والفكاهة كما يقتضي الفن وكما تقتضي حاجة النظارة إلى التسلية عن أنفسهم ؟ ألا تزلزل الأرض بالكاتب والممثلين جميعاً ؟ ومع ذلك فهذا أيسر مما يشهد الناس من الأمر في باريس . فرجال السلطات الثلاث عرضة للفكاهة المتصلة والتندر الذي لا ينقضي ، لا يسلم من ذلك شيخ ولا نائب ولا

وزير ، بل لا يسلم من ذلك رؤساء الجمهورية أنفسهم . فأما
أساتذة الجامعات وكبار رجال التعليم فالتندر بهم مألوف . ولم
لا ، وهم يتندرون بأنفسهم وطلابهم ، وتلاميذهم يتندرون بهم
في الغيب والشهادة ، لا يجدون في ذلك بأساً ، ولا يضيق بذلك
منهم صدر استاذ أو مدير . فأين نحن من هذا كله ؟ !
وكيف لو تندر اصحاب المزاج بوزرائنا وساستنا وأساتذتنا ؟
والغريب من الأمر ، بل الطبيعي من الأمر ، أن تندر المتندرين
وتفكه المتفكهن وعبث الناس بالذين ينهضون بالأعباء العامة ،
لا ينفذ من هيبة السلطان ولا يعرض الساسة والقادة والزعماء
إلا للحب والتقدير ما استحقوا الحب والتقدير . والأصل في هذا
كله أن لكل لون من ألوان العمل الإنساني ناحيته الهازلة ، وإن
الشعب في البلاد الحرة يرى أن الحياة العامة ملك له هو لا
للساسة ولا للقادة . وما دام الواجب الوطني المدني يقضي عليه أن
يحمل جسد الحياة العامة ويشقى بهذا الجد أحياناً في نفسه
وماله ، فإن الحق الوطني المدني له أن ينعم بما في حياته العامة
من خير ، ويلهو بما في هذه الحياة العامة من فكاهة أو دعاية
أو مزاح . والمهم هو أن حياة الشعب ملك للشعب ، يبتس بها
حين تفرض عليه الابتئاس ، ويبتهج بها حين تتيح له الابتهاج ،
ويضحك منها حين تذر في نفسه الضحك . وليس لناهضين بأعباء
هذه الحياة أن ينكروا ذلك أو يضيقوا به ، فهم حين يقبلون
النهوض بأعبائهم لا يشترطون على الشعب ألا يضحك منهم حين
تدعو سبوتهم للضحك ، وألا يتندر بهم حين تدعو سبوتهم

للتندر . وكما أن الكاتب والشاعر والفيلسوف والعالم لا يشترطون على قرائهم قبل أن يقدموا إليهم آثارهم أن يعفوههم من النقد ، فالساسة والقادة والموظفون لا يشترطون على الناس قبل النهوض بأعمالهم ان يعفوههم من النقد سواء كان هذا النقد مرآ أم حلوأ وجدآ أم مزاحآ . كذلك يحيا الناس في البيئات التي استقرت فيها الحضارة حتى ثبتت أصولها في أعماق النفوس . فأما البيئات التي تجتلب الحضارة اجتلابآ وتشترى بالدراهم والدينار وتزين بها في الشوارع لتتخفف منها في الدور ، فهي بيئات لا تحمل دعابة ولا فكاهة ولا مزاحآ ، وإنما هي متحفظة متحرجة مترممة ، لا تفرق من شيء كما تفرق من النقد ، ولا تفرغ من شيء كما تفرغ من الدعابة ، وهي تكلف القوانين من حمايتها ما تطبق وما لا تطبق ، فإن لم تسعفها القوانين التمسست حمايتها في التحكم والظلم والاستبداد .

سيدي العزيز :

فرغت الآن من قراءة كتابك الذي حمل إليّ مع طعام الإفطار والذي قطع الطريق بين القاهرة وباريس في أقل من يومين ، فقد يظهر أنك أسلمته إلى البريد قبل أن تطير الطائرة بوقت قصير جداً . وقد طارت الطائرة أثناء الليل ووصلت مصبحة ، ولم يستأن ساعة البريد بكتابك ، فأقبل يسعى نشيطاً مرحاً كأنما يباهي بهذه السرعة التي جاب بها آفاق السماء ؛ وقد تلقينه لا مرحاً ولا نشيطاً ، فلم يبعد عهدي بمصر بعد ، ولم أحس الشوق إلى ما ترسل إليّ من الكتب والرسائل . وأكاد أقول إنني ما زلت مثقلاً بما كنت أحمل فيها من الأعباء لم أتخفف منه إلى الآن . وكيف أتخفف منه في هذه الأيام القليلة التي أنفقتها منذ تركت الاسكندرية ، وأنت تعلم أن حياة يوم واحد في مصر تعدل حياة أيام كثيرة في فرنسا ، لا لأننا نعمل في مصر ونغني أكثر ما نعمل ونغني في فرنسا ، بل لأننا لا نعمل شيئاً أو لا نكاد نعمل شيئاً ، وإن ما يصدر عنا من

الحركة والنشاط ليس بلدي غناء . وليس شيء أثقل من الحياة
الفارغة ، وليس شيء أخف من الحياة المليئة . والحياة الفارغة
عندي هي التي يستقبل فيها الإنسان الصبح المشرق والليل
المظلم دون أن يضيف إلى علمه علماً وإلى معرفته معرفة ، ودون
أن يحدث من الآثار ما ينفعه وينفع الناس . فإذا أضقت إلى هذا
الفراغ الذي يملاً حياتنا في مصر - إن صح أن يملاً الفراغ
شيئاً - هذا السخف الكثير المختلف المختلط الذي يملاً يومنا
وليلنا أيقاظاً ونياماً ، عرفت أنني لست غالباً ولا متكلفاً حين
أقول إنني لم أخفف بعد من ثقل الحياة المصرية ، ولم أشتق بعد
إلى رسائلكم وكتبكم . وصفني بما شئت من الغلظة والجفوة ،
وقل في ما أحببت من قسوة القلب والتبوع عن الذوق ، فلمني
أحدثك بذات نفسي ، لأنني تعودت أن أحدثك بذات نفسي
لا ألوي عنك بما أجد في أعماق الضمير . فقد تلقيت كتابك إذن
معرضاً عنه ، وقرأته لا أقول ضيقاً به ، ولكني أقول إنني
قرأته في فتور . ثم سألت نفسي أكتب إليك أم أطوي عن الكتابة
كشعاً ، كما يقول الجاحظ . ثم أقبلت على الكتابة إليك فأتراً
كما أقبلت على قراءة كتابك غير نشيط . وأنت تعنب عليّ بأنني
لم أوذّنك بيوم السفر وساعته لتسعى إلى لقائي وتخف لوداعي ،
وتسألني لماذا طويت عنك موعد السفر . يا عجباً كل العجب !
فهل تذكر أنني أنبأتك قط بإزماح السفر حين كنت أزمع السفر ؟
وهل تذكر أنني أنبأتك قط بيوم السفر وساعته ؟ أما أنا فما ذكر
أنني كنت ألقاك فيامضي مصباحاً وممسياً وأسمع حديثك في

التليفون بين ذلك ، لا تثقل عليّ زيارتك ولا يثقل عليك لقائي ،
ولا يضيق أحد منا بحديث صاحبه مهما يتصل ، ولا يحتمل أحد
منا سكوت صاحبه مهما يقصر . وكنت تعلم من بعض أمري كله مثل
ما أعلم ، وكنت تعلم من بعض أمري أكثر مما أعلم ، فأنت
متصل بالناس تسمع ما يقولون عني وما يقولون فيّ ، وأنا
منقطع عن الناس لا أكاد أعرف من أمرهم إلاّ ما يحمل إليّ
في داري التي لا أتركها إلاّ قليلاً . وكنت أنت صلة بيني وبين
الناس تحمل إليّ أنباءهم ، وتحمل إليّ بعضهم أنبائي . ثم أقبلت
أيام أسفر فيها الصبح وغشى فيها الليل ولم ألقك في ليل ولا
في نهار . وقد أنكرت منك ذلك أول الأمر فسألت عنك لأنني
خشيت أن يكون بعض المكروه قد أقعدك عني ، فعلمت منك
أنك موفور لا بأس بك ولا بأس عليك ، وإنما شغلت ببعض
ما يشغل به الناس . وانتظرت أن تنجلي عنك هذه الغمرة
للطائرة ، ولكنها لم تنجل ، وإنما تكاثفت وتتابعت وركب
بعضها بعضاً ، وإذا اليوم يمضي وفي أثره اليوم وفي أثرهما
الأيام لا ألقاك ولا ألقى من يلقاك ، ولا أعرف من أمرك ولا
اسمع من نبأك شيئاً . هناك علمت أنها القطيعة ، ثم علمت أنه
الانحراف الذي تدفع إليه ظروف الحياة بعض الناس أحياناً .
فصبرت نفسي على ما تعودت أن أصبرها عليه من قطيعة
الأصدقاء وانحراف الأخلاء ونضوب الود في قلوب الإخوان .
ثم مضيت في أمري أصعد في نجاد الحياة وأصوب في وهادها ،
وأنت عني لاه مراه وأنا عنك لاه مراه ، لا يسأل أحد منا عن

صاحبه ، ولا يتبغي احد منا إلى صاحبه وسيلة أو سبباً . ثم أقبلت على هذا السفر كما أقبلت على كثير غيره من الأمر ، لم أؤذلك بشيء لأنني لم أعود أن أؤذلك بشيء . وهما أنت هذا تكتب إليّ تتجاوز في كتابك العتاب إلى اللوم . فماذا حدث في مصر من الأحداث ؟ ما زالت أمور مصر تجري على النحو الذي تركها تجري عليه ، لم يتغير منها شيء ، ولم يبد للمنافع فيها والآراب وجه جديد . ما سؤالك عني بعد نسيانك لي ؟ وما تجنيك عليّ بعد هذا الإغضاء الطويل ؟ أتريد أن أفسر لك غامض قلبك وخفي نفسك وما التوى عليك من ذات ضميرك لعلك تجد في هذا التفسير شفاء لبعض ما يؤذيك من هذا الداء المدخيل منذ أيام ؟ أتريد أن أتحدث إليك بأني عاتب عليك لأنك أغضبت عني وقطعت من أسبابي ما كان حقه أن يوصل ، وأن أفصل لك أعراض هذه القطيعة ومظاهر هذا الإغضاء ، وأن أحصي عليك بعض ما أثبت مما لا تحب ولا أحب ، فأكون أشبه بالطبيب حين يستكشف الداء ويشق على المريض بعلاجه ولكنه يبرئه آخر الأمر ، أو أشبه شيء بالجراح حين يفتح الدملى فينقيه مما جمع من الصديد ؟ أرح نفسك يا سيدي ، لست طبيباً ولا جراحاً ، ولست أحسن علاج النفوس المريضة ولا شفاء القلوب المدخولة ، ولست أكره شيئاً كما أكره التنقيب في ضمائر الناس . لن أعتب عليك ، فإنك لم تدع إلى العتاب سبيلاً . ولن أؤلمك فإني لا أؤلم إلا من أعتد به . وقد كنت أعتد بك حين كنت تمنحني ودك . فأما وقد استرددت هذا الود وآثرت به قوماً

وأبتهم أحق به واجدر ، فلمني أهنتك بأصدقائك الجدد ،
وأهنيء بك أصدقائك الجدد ، وأرجو ألا يعرض بينك وبينهم
من الأحداث ما يصرفك عنهم أو يصرفهم عنك ، ومن يحولك
إلى غيرهم أو يحولهم إلى غيرك كالذي عرض بينك وبين من
الأحداث . ومن يدري هل مما يلائم نفسك أن تحدث صداقة
جديدة بين حين وحين ؟ فضي كثير من الناس ملل ، وفي كثير
من القلوب سأم ، والناس يبدلون ثياب أجسامهم ويغيرون ألوان
ما يأكلون ويشربون ، فما عليهم أن يبدلوا ثياب قلوبهم ! وقد
قال الراجز العربي منذ قرون طوال :

البس لكل حالة لبوسها إما نعيمها وإما بوسها
فالبس يا سيدي للحال التي نحن فيها لبوسها . ولبوسها يسير
جداً قريب جداً رقيق جداً ، هو أن نؤاد الأخلاء ما نفعتنا
مودتهم ، وأن نحتملهم إذا لم يجلب علينا احتمالهم مضرة أو لم
يضييع علينا منفعة ، وأن ننسل من ودهم كما تنسل الشعرة من
العجين إن آنسنا من هذا الود جلب مضرة أو تضييع منفعة
أو إغضاب من لا ينبغي أن نتعرض لغضبه من الناس . وأي شيء
أبسر من أن تصفو لي اليوم وتكدر لي غداً ، ثم تعود إلى مثل
ما كنت فيه من الصفو ، ثم ترتد إلى مثل ما كنت فيه من الكدر ،
وتجعل نفسك على هذا النحو كرة تقذفها من الصلة إلى القطيعة
ومن القطيعة إلى الصلة ، وترجحها بين القرب والبعد ، وبين
الوصل والصد ، وبين الرضا والسخط . كل ذلك يسير قريب
ملائم للحال التي نحن فيها ، ولكنه لا يلائمني ، وإنما يخالف

طبعي كل المخالفة . وما أكثر ما كنت أغبظك بترديد هسدا
البيت :

حيّ الحمل بجانب الرمل إذ لا يلائم شكلها شكلي
فاسمعه مني للمرة الأخيرة ، واعلم أن شكلك لا يسلائم
شكلي ، وجنبي ما تعلم أنني أكرهه أشد الكره من السرياء
والتكلف والنفاق ، واقبل أو لا تقبل تحية خالصة بحملي الأدب
على أن أضعها في آخر هذا الكتاب ...
ولكني لم أكد أفرغ من إملاء هذه الرسالة حتى رأيتها ثقيلة
ممضة قاسية ، فتقدمت إلى صاحبي أن يطويها فيسا يطوي . وما
أكثر ما يطوي من الأوراق !

هوّن عليك يا سيدي ، وثق بأنني لست لائماً لك ولا واجداً عليك ، فאלله لا يكلف نفساً إلا وسعها . وأكرم ما ينبغي للرجل ذي المروءة من المنازل أن يتأدب بهلدا الأدب الكريم الرفيع فلا يكلف الناس ما لا يطيقون ، ولا يشق عليهم بما لا يستطيعون أن يتحملوا من الجهد . ونحن في أيام تفرض على الذين يريدون الحياة اليسيرة السهلة ان يوثروا العافية ويتجنبوا المصاعب ويتخففوا من الأثقال . والحياة التي نعيشها في هذه الأيام أشبه شيء بالبحر المضطرب الذي تعصف به الريح ، ويضطرب فيه الموج اضطراباً يوشك أن يكون هديراً ، ويتعرض من يعبره للهلول كل الهول إذا لم يكن خفيفاً رقيقاً يميل مع الريح كل مميل ويتحرف مع الموج كل منحرف ، فإن لم يفعل ذلك هوى إلى القاع أو أوشك أن يهوي إلى القاع .

فلا تلم نفسك ، ولا تحسبني ألومك على أنك قد تخففت من بعض الثقل ، وتحررت من بعض القيد ، وأعفيت نفسك من

بعض هذا الواجب الذي يفرضه على الناس ذلك الشيء القديم العتيق البالي الذي نسميه الأخلاق . الأخلاق شيء رث حقاً قد أكل الدهر عليه وشرب ، وأبلاه تصرف الأيام وتقلب الاحداث وتتابع الخطوب ، حتى أصبح تلعن العاجزين وتسكأ الخاملين الخامدين الذين لا يبغون في الأرض نقداً ولا علواً ، والذين لا يحسنون مجارة الأيام وملاينة الحوادث الهوج .

هون عليك يا سيدي ! لقد كان ابن الزيات يقول إن الرحمة خور في الطبيعة ، فلنقل مع ابن الزيات ان الوفاء قصور في الهمة وفنور في العزيمة وفساد للمزاج . ولنقل مع ابن الزيات وأمثاله إن إخاء الإخوان وصدقة الأصدقاء وود الأخلاء كل ذلك حسن إن أدى إلى منفعة أو زاد مضرة أو وقى من مكروه ، فاما إن ضيع المنفعة وجلب المضرة وورط في المكروه فهو الحمن الاحمق ، وهو العجز العاجز ، وهو الخصلة التي تدل على أن صاحبها لا يصلح لشيء ولا يرجى لشيء ولا ينتظر منه شيء . وضع نفسك حيث تريد لك الأخلاق أن تكون ، ووازن بين حالك إن فعلت وبين حالك بعد أن لم تفعل . إن صديقك الذي كنت تعرفه وتألفه وتركن إليه مجفو قد نبت به الدار وتنكر له الذين يملكون النفع العاجل والضرر القريب . فلو قد وقيت له وأصفيته مودتك وصدق إخائك ، لجفاك من يجفوه ولتنكر لك من يتنكر له ، ولنبت بك الدار التي نبت به ، ولا نصرفت عنك المنافع التي انصرفت عنه ، ولأقبلت عليك المحن

التي أقبلت عليه ، ولأقمت بين قومك في دار قلبي لا تجد فيها
من يعرفك ولا من يألفك ولا من يتقرب إليك ولا من يبتغي
إليك الوسائل ويصل بك الأسباب . إذن لخلوت إلى نفسك في
أكثر الوقت ، ولألتمست ما تحب فلا تجد منه شيئاً ، ولقررت
مما تكره فلم تجد إلى الفرار منه سبيلاً . وأنت رجل تحب الدعة
وتؤثر السعة وتطمع إلى خفض العيش وبسط الرزق وامتداد
الجاه واتساع السلطان ، لا تستطيع أن تصبر نفسك على الضيق
ولا أن تروضها على التواضع ، ولا أن تقنعها بما قسم لها ، فهي
دائماً طامعة طامحة ، وأنت دائماً شقي بطمعها وطموحها تتكلف
في سبيلها من الجهد ما يطاق وما لا يطاق ، وتأتي في سبيلها
من الأمر ما يباح وما لا يباح ، وترضى في سبيلها بالمنزلة التي
لا يرضاها من كرمت عليه نفسه فأبى أن يخضعها للضيم وينهلها
لتحكم المستلطين .

هون عليك يا سيدي ! لقد عرفتك حق معرفتك وبلوتك
أحسن ما يبلو الإنسان الإنسان . وعرفت فيك هذا الطمع الذي
لا حذ له ، وهذا الطموح الذي لا ينتهي إلى غاية ، وعرفت
فيك الضعف عن مقاومة الشهوة حين تعصف بك ، وعن الامتناع
على المنفعة حين تلح عليك . وأنت رجل قد نشأت محروماً
مأزوماً مكلوماً هيناً على الناس ، وقد آذاك هذا كله في نفسك
أشد الإيذاء ، فنشأت وفي نفسك نزوع إلى الانتقام وجشع إلى الظفر بالئار .
شقيت ورأيت قوماً حولك يسعدون ، فرأيت في سعادتهم إهانة
لشقائقك ، وأضمرت لهم في نفسك حقداً دفيناً وبغضاً كميناً

وعداء مبيئاً ، وأزمعت أن تجاهد في الحياة حتى تنعم كما نعموا
وتسعد كما سعدوا وتصبح لهم ضريباً . فلما بلغت من ذلك ما
أردت لم تقتر همتك لأنها لا تعرف الفتور ، ولم تقعد عزيمتك
لأنها لا تألف القعود ، ولم تضق آمالك لأنها لا تحب الضيق ،
ولأنما أزمعت أن تفوت القوم بعد أن أدركتهم ، وأن تستعلي
عليهم كما استعلوا عليك ، وما زلت تجد وتكد حتى ظفرت من
ذلك بالشيء الكثير ، تظهر للناس ودّاً وتضمّر لهم عداً وحقدّاً .
لم تخلص نفسك قط لصديق ولم يصف قلبك قط ل خليل ، وإنما
أنت رجل متكلف دائماً تتودد لمن خفت وتتودد لمن أكبرت
وتتودد لمن رجوت ، حتى إذا أمنت من تخاف ، وناظرت من
تكبر وأدركت ما ترجوت تنكرت وتنمرت واستكبرت ثم بغيت
وطغيت واستعليت ، ثم آمنت بنفسك وحدها ولم تؤمن بغيرها
إلا أن تكون لك عنده حاجة أو تكون في نفسك له مهابة .

وكذلك أنت دائماً متكلف في الصداقة ، متكلف في الإخاء ،
متكلف في المجاملة ، متكلف في المصانعة . فالأخلاق عندك
وسيلة لا غاية ، والوفاء عندك أداة لتحقيق المنافع وقضاء
المآرب وإدراك الآمال . كذلك عرفتكم منذ اتصلت بينك وبينني
أسباب الحياة . كنت شديد الحاجة إليّ فكنت شديد الوفاء لي ،
وكنت شديد الخوف مني فكنت شديد التحجب إليّ ، وكنت
تظن أنني قد خدعت عنك وآمنت لك وصدقت أحاديثك الكاذبة
وأمانيك الخائبة واطمأنت إليك كما يطمئن الأخ الصديق إلى
الأخ الصديق ، فكان ذلك يزيد مكرك بي وكيدك لي وخداك لي

لياي . ولم أكن شهد الله إلا مشفقاً عليك راحماً لك . والحر
يخدع أحياناً فيخدع ، كما أنه يظلم أحياناً فيظلم ، على علم
منه بأنه منخدع ، وعلى ثقة منه بأنه مظلّم ، يدفعه إلى ذلك رفقته
بالضعفاء وعطفه على البائسين . وأي الناس أشد ضعفاً وأبأس
بؤساً وأحق بالرحمة والعطف من هؤلاء الذين تصغر نفوسهم
وتكبر آمالهم !

كنت إذن شقيقاً عليك رؤوفاً بك منخدعاً لك ، لا تتقدم
إلا دفعتك إلى أمام ، ولا تبلغ منزلة إلا رقيت بك إلى منزلة أعلى
منها ، وأنت تقول في نفسك يا له من أحمق ! وأنا أقول في نفسي يا له
من بائس ! حتى إذا دارت الأيام وخيل إليك أنك قد بلغت
الغاية وأدركت الأمد واستأثرت بالأمر تصرفه كما تحب
وتهوى ، أرسلت نفسك على سجيتها وأجريتها على طبيعتها ،
وأقيت تلك الحجب التي كنت تتصنعها ، وألغيت تلك الكلف
التي كنت تتكلفها ، وأقبلت على الخيانة والغدر والجحود ، لا
تتحفظ ولا تتحرج ولا تحتاط . خيل إليك أن الحياة قد استقامت
لك ، وأن الدنيا قد لاذت بك ، وأن السلطان كله قد انتهى
إليك ، فاستخففت حتى بأيسر المجاملة ، واستهترت حتى
بأنكر النكر . ثم لا أدري كيف ثابت إليك نفسك القديمة أو كيف
ثبت إليها ، وما هذا الطائف الذي طاف بك فعلمك في لحظة من
لحظات الحياة أن لبعض العهد القديم حقوقاً يجب أن تحفظ
وحرمان يجب أن ترعى ، وإذا أنت تكتب إلي كتابك هذا
الغريب تذكرني فيه بأيامنا تلك ، وتريد أن نعود إلى عهدنا

ذاك .

هيهات يا سيدي هيهات ! قد صرح الشرّ وظهر النكر
واستبانت خفيات النفوس . وأقسم لقد خدعت نفسك أو خدعت
عنها حين كتبت إليّ بهذا الكتاب ، ولكنك لم تخدعني الآن
ولن تخدعني غداً ، كما أنك لم تخدعني قط ، فأنا مشفق عليك
الآن وغداً ، كما أشفقت عليك أمس وأول من أمس وأول من
أول من أمس . ورب لإشفاق خير منه الاحتقار . ورب رحمة
خير منها النعمة . ورب عطف خير منه الازدراء . ولكنك لا
تبلغ من نفسي أن أحتقرك أو أزدريك أو أنقم منك . فأنعم بما
أنت فيه من دعة كاذبة وسعة باطلة وجاه موقوت . وثق بأن الأيام
التي دارت لن تقف ولكنها ستمضي في دوراتها ، وستبدي لك
صفحتها ، وستلقاتك بالقليل أو الكثير مما تكره . وثق بعد ذلك
أو مع ذلك بأنك ستجدني كما وجدتني دائماً معيماً لك دافعاً إياك
محققاً لك المنافع قاضياً لك الآراب ، لا عن رحمة ولا عن عطف
ولا عن اشفاق ، ولكن عن ازدراء واستخفاف . وأنا مطمئن
إلى أن ذلك سيرضيك ويسلبك ويسرّي عنك الهم ، ويفتح لك
أبواب الأمل ، لأنك لا تكره شيئاً كما تكره التحليل والتعليل
والتأويل ، ولا تفر من شيء كما تفر من التعمق والفهم ، ولأنك
تأخذ المنافع كما تجيء وكما تكون ، لا تسأل من أين تأتي ،
ولا تسأل كيف تأتي ، ولا يعينك أن تعرف من أين تأتي أو
كيف تأتي ، وإنما يعينك أن تتلقاها متى عرضت لك .
فأنعم بحياتك هذه الجاهلة الغافلة ، وأرحني مسن جهالك

وغفلتك ، فيأني لا أحب أن أستقبل الامر إلا عالمياً بمصادره وموارده . وبعد فأنا مستيقن أنك لم ترسل كتابك هذا الغريب حتى انكرته ولمت يدك على أن خطته ، ولمت نفسك على أن أسلمته إلى البريد ، وجعلت تسائل حين تخلو إلى نفسك وحين تلقى أصحابك الذين يشاركونك في هذه الضعة الوضيعة : كيف يكون لقائي لهذا الكتاب ، وكيف يكون ردي عليه ، وكيف يكون تأثرك بهذا الرد ؟ فاطمن يا سيدي ، فلن تعرف من هذا كله شيئاً ، لأنني سأقدم إلى صاحبي في أن يطوي هذا الكتاب فيما يطوي من الأوراق . وما أكثر ما يطوي من الأوراق !

لن تقرأه إذن ، ولن تعلم كيف تلقيت كتابك وكيف كان ردي عليه ، ولن تتكلف الجهد اليسير أو العسير لتلائم بين سيرتك التي نجحها وبين ما أحب أن يكون عليه الأصدقاء .

لا تشق على نفسك يا سيدي ولا تكلفها ما لا تريد أن تتكلف
 من المودة بعد أن انقطعت أسبابها ، ومن الوفاء بعد أن عصفت
 به الريح . لست أدري ما هذه الظاهرة الجديدة التي أخذت تظهر
 منذ وصلت باريس . فهذا الكتاب الذي تلقيته منك هو الكتاب
 الثالث من هذه الكتب التي تتكلف الود وتنصنع الحرص
 على الوفاء . أيمكن أن يكون الندم قد وجد إلى نفوسكم
 سيلا ، أم هو الإمعان في المكر والغدر والخداع يدفعكم إلى
 هذه الكتب التي تقطر وفاء وسخاء وإخاء بعد أن قدمتم بين أيديكم
 من الأعمال ما يقطر رياء ونفاقاً وكيداً ١٩

تبارك الله ! كنت تريد أن تلقاني قبل أن ابرح الأرض ،
 فأحمد الله على أنك لم تلقني ، لأنني عرفت غدرتك الشهباء ،
 وتميت أن يجنبك الله لقائي حتى لا تتورط في الخزي حين ترى
 صديقاً لم يقدم إليك إلا خيراً ، ثم لم تقدم إليه إلا مسكراً
 وغدراً .

أحمد الله إذن على أنك لم تلقني قبل أن أبرح الأرض. واجتهد
في ألا تلقاني بعد أن أعود إلى الأرض ، فاني لا أحب للناس
أن يستخذوا من أنفسهم أمام أنفسهم ، فأولى ألا أحب للناس
أن يستخذوا من أنفسهم أمام الناس . ولو استطعت أن اسستر
سيناتك لأجنبك الاستخذاء أمامها لفعلت . ولكن الأيام
مستقوم عني بهذا الأمر ، فستنسبك غدرك ومكرك ، وستصور
لك أنك الأخ النقي الوفي الأبوي ، وستنسبي أنا أيضاً مكرك
وغدرك وجحودك ، وستخيل إلي أنك ما زلت كما كنت
رجلاً يظهر الخير ويخفي الشر ولا يجاهر بالخيانة ولا يصرح
بالإثم تصرحاً . ولكن دع الأيام تفعل فعلها ، أنتح لها أن تنسبك
نفسك ، وأنتح لها أن تنسبي غدرك الشبهاء . والقي إن شاء الله
بعد شهر ، فلن تجد عندي إلا ما تحب . ومن يدري ! لعلني
لا أنتظر بك أن تسعى إلي ، ولعلني أن أسبق إلى دعائك أو
السعي إليك ، فلإني قد أخذت نفسي منذ دهر طويل بقسول
بشار :

وصاحب كالدمل المميد حملته في رقعة من جلدي

وأخذت نفسي بقوله أيضاً :

إذا أنت لم تشرب مراراً على القذى

ظمئت وأي الناس تصفو مشاربسه

وإن كنت لا أشرب على القذى إلا وذو هؤلاء الأصدقاء الذين

يتكلفون الود وليسوا منه في شيء .

وبعد ، فقد أهملت كتاب صاحبيك فلان وفلان ، لم أرد عليها أو لم أرسل ردي عليها ، فما لي لا أحمل كتابك أنت كما أهملت كتابي صاحبيك ! أرخصي إذن من نفسك وأرح نفسك مني ، وانتظر لعزل الله يحدث بعد ذلك أمراً . لن نقرأ هذا الكتاب ، لأنني سأقدم إلى صاحبي في أن يطويه بين ما يطوي من الأوراق . وما أكثر ما يطوي من الأوراق !

وقد يسأل القارئ ما بالي خرجت بهذه الكتب من السر بعد أن استودعته إياها ؟ وما بالي أقرئ هؤلاء الكتابين ردي علي كتبهم منشوراً في كتاب مع اني أبيت أن أقرئهم هذا الرد فيما بينهم وبين أنفسهم ؟ وجوابي على هذا السؤال يسر جداً ، وهو أنني لم ألتق في باريس كتباً ولم أرد عليها . وإنما أنفقت في باريس وفي الطريق بين القاهرة وباريس ساعات كثيرة ، أفكر في أفراد من الناس منهم من أعرف ومنهم من لا أعرف ، ولكنهم جميعاً قد أذعنوا للمنفعة واستسلموا للمآرب ، وأذلوا أنفسهم للحاجات ، وأهدروا من الأخلاق وقوانين الود ما تواضع الناس على أن يكبروه ، ومسني من بعضهم شر قليل أو كثير ، فذكرتهم فيما كنت أذكر ، وتحدثت إليهم فيما كنت أتحدث . وأخص ما يمتاز به السفر بالقياس إلي أنه يردني إلى نفسي ويذكرني أشياء تصرفني عنها شؤون الحياة وخطوبها أثناء الإقامة . فقل إن شئت إنني نائم حين أقيم ويقظ حين أظعن ، وأنني استحضر أثناء الظعن ما يعرض لي وما يعرض من حولي أثناء الإقامة ، كما يستحضر المستيقظ ما يستطيع أن يستحضر

مما عرض له أو عرض من حوله في الأحلام التي يسوقها النوم
إليه أو يسوقه إليها . وأنت ترى أن يقظتي ليست باسمسة
دائماً ، لأن أحلامي ليست باسمسة دائماً . وأنت ترى أنني لست
في ذلك بدعاً من الناس ، فالرجل الذي تبسم أحلامه دائماً وتبسم
يقظته دائماً لم يخلق بعد . والإنسانية تبدل ما تبدل من الجهد وتلقى
ما تلقى من العناء وتحتمل ما تحتمل من المشقة لعلها أن تتيح لهذا
الإنسان الذي يبسم حلمه وتبسم يقظته أن يوجد في يوم من
الأيام .

صديقي العزيز ...

أعلم أنك لم تكذّ تعود إلى باريس أثناء الشتاء حتى قعدت في دارك وأغلقت بابك ، وآذنت أصدقاءك ومحبيك أنك لا تريد أن يشقوا عليك ولا على أنفسهم بالسعي إليك ، لأنك لن تلقى منهم أحداً . تحرص على أن تخلد إلى الراحة وتفرغ لما تريد أن تفرغ له من العمل . ولكننا نلم بباريس المأمة قصيرة ولا نستطيع أن نسلو عن أن نهدي إليك تحية ملوها الود والوفاء ، وسنكون أسعد الناس إن أتاحت لك صحتك وأتاح لك وقتك أن تلقانا ساعة حول مائدة الغداء في اليوم الذي تختاره قبل يوم السفر الذي سيكون في اليوم الخامس من هذا الأسبوع . وقد فرغنا من قراءة كتابك الأخير ، فزادتنا هذه القراءة إكباراً لك وإعجاباً بك إن كان من الممكن أن يكون في إكبارنا لك وإعجابنا بك مزيج .

وقد تلقى هذا الكتاب في الضحى ، ولم يتجاوز النهار نصفه
حتى تحدث إليّ في التليفون كأحسن ما يكون الحديث ، وأنبأني
بأنه سيتغدى معنا إذا كان الغد . ولست أري كيف تلقيت
حديثه ، ولكن الذين كانوا حولي رأوا نوراً يغمر وجهي فجاءة
كأنما أشرق عليه من أداة التليفون . ولست أدري كيف انتظرت
هذا اللقاء الموعود ، ولكن الذين كانوا حولي شهدوا بأنهم لم
يروني قط بحيث رأوني من سماحة النفس وطلاقة الوجه وحسن
للخلق ورقة الحديث . ولست أدري كيف استقبلته حين أقبل ،
ولا كيف قضيت معه تلك الساعة القصيرة ونصيب من الطعام
قليلاً ، ونحوض من حديث الأدب والأدباء في بحر لا ساحل
له ، وإنما أعلم أن هذه الساعة القصيرة كانت وما زالت وستظل
تعدل عاماً كاملاً من الأعوام التي أقضيها مقيماً في مصر أو متغلاً
خارج مصر . وأعلم كذلك أنني صحبته إلى داره وودعته عند
باب الدار ، واستقبلت سماحة النفس وطلاقة الوجه وحسن
الخلق وعدوبة الحديث والابتسام للحياة والأمل في الأيام يوماً
وبعض يوم . ثم أخذنا نتهياً للعودة إلى القاهرة ، فنزورونزار ،
ونحزم الأمتعة كما يقال ، ونسعى إلى القطار ونقضي فيه الليل
كله ثم نقضي فيه أكثر النهار نستقبل إيطاليا مع الشمس
المشرقة ونبلغ جنوا حين ينشر الأصيل حزنه الشاحب على
الأحياء والأشياء ، ثم نفق الليل في الفندق ونفق النهار في
مدينة جنوا متقلين بين أحيائها في يوم مطير بارد ، ثم نأوي إلى
السفينة مع الليل وأنا في أثناء هذا كله أبحث عن نفسي فلا

أجدها ، وأتمس صديقي ذاك الذي فارق الحياة منذ قليل
والذي لقينته في سفري إلى باريس ونعمت بصحبته في جنوا ،
وسعدت بحديثه في السفينة والقطار فلا أجده. وأريد أن استحضر
تلك الساعة الحلوة القصيرة التي قضيتها مع صديقي ذلك الكريم
العظيم فلا أجده إلى استحضارها سبيلاً ، وإنما هي الحياة
الفارغة التي يملؤها السخف : زيارات تؤدي زيارات تتلقى ،
واضطراب في هذه الشؤون التي يضطرب فيها المسافرون ،
وجلوس إلى مائدة الطعام قبل أن نركب القطار ، وإقبال على
طعام الافطار الذي تحمله إلينا في الخلود فتيات مشرقات
النفوس والوجوه والأصوات ، ثم محاولة للتفكير في غير نفع ،
ومحاولة للحلم في غير طائل ، وإغراق في التدخين ، وتجاذب
للحديث الذي لا ينبغي عن أصحابه شيئاً . وقد خرجت السفينة
من الثغر أثناء الليل ، وأصبحنا وقد أذهلنا البحر عن أنفسنا :
رياح عاصفة قاصفة ، وموج مضطرب مصطخب ، وسفينة تريد أن
ترقص فلا يتاح لها الرقص ، وإنما هي حركة عينية مختلطة تميل
بها إلى هذا الجانب ثم إلى ذاك ، وتميل بها إلى أمام ثم إلى وراء ،
وآنية تساقط هنا وهناك ، ودوار يلزم أكثر السفر مضاجعهم ،
وخوف يعبث ببعض النفوس ، والشمس مع هذا كله مشرقة
بنور ربهما تسخر في هدوء من السفينة والسفر والبحر ، كسأن
الرياح من حولها لا تعصف ولا تقصف ، وكأن أمواج البحر لا
تضطرب ولا تصطخب ، وكأن حركة السفينة لا تختلط ،
وكان ألواح السفينة لا تبعث هذا الأثر الذي يؤدي النفوس .

ونحن ننفق اكثر النهار بين غضب الريح واضطراب
البحر وسخرية الشمس الهائلة التي تملؤها الكبرياء . حتى اذا
دنا الاصيل سكنت الريح وسكت البحر واستيقظ الناس
سكارى وما هم بسكارى ، واقبلوا على طعام العشاء في فتور
فاتر خبر منه الاستقرار في المضاجع والمخادع . ثم يرد الليل
الهادى الى السفر شيئاً من قوة وفضلاً من نشاط ، فيستقبلون
يومهم الثاني فرحين مرحين كأنهم لم يمتحنوا في انفسهم
واجسامهم امتحاناً عسيراً منذ وقت قصير . وهذه فتاة من
فتيات الفن الرخيص ترقص للشمس المشرقة الساخرة ، وللبحر
الهادى المطمئن ، وللسفر الذين لا يعينهم من الرقص إلا جسم
غض بض يعرض عليهم من محاسنه ما ظهر وما خفي .

وهذا رجل في الطرف الآخر من السفينة قد استحضر دُباً
صغيراً في قفص ضيق ضئيل ، فهو يخرج الدب من قفصه بين
حين وحين ، ويعلمه ألوان الرقص وفنون اللعب ، يأخذه
بالرفق قليلاً وبالغف كثيراً . والناس من حوله ينعمون
ويبتهجون : فريق من السفر يستمتعون برقص الدب ، وفريق
آخرون من السفر يستمتعون برقص الفتاة الحسنة . والبحر
الساكن المستقر والشمس الهائلة المشرقة يسخران من اولئك
وهؤلاء . وتبلغ السفينة ثغراً من الثغور ، فلا تكاد تستقر فيه
حتى يصعد اليها المجون والفجور يستهويان من يستجيب للهوى
وينويان من يستجيب للغواية . وينبئني صاحبي ببعض ذلك
فأعرف سخرية الوجود بالناس ، واستعلاء الله عز وجل عن

أن يؤاخذ الناس بما يكسبون. فلو قد فعل لما أبقى على ظهر الأرض
ولا على متن البحر من دابة :

وأنا أفزع مع صاحبي من هذا كله الى القراءة والاملاء
ولكني أحاول على ذلك أن أصل إلى نفسي فلا أجدها ، وأدعو
مع ذلك صديقي ذاك فلا أسمع له جواباً ، وأحاول أن استحضر
حياتي تلك في باريس فلا أجدها الى استحضارها شيئاً . وأنا
ضيق بالسفينة ، ضيق بالبحر ، ضيق بالسفر ، ضيق باعتدال
الحو وصحو السماء ورقة النسيم . أفزع من هذا كله الى القراءة
والإملاء فلا أجدها في القراءة والاملاء غناء .

وأصبح ذات يوم وقد هدأ سعي السفينة حتى أصبح حركة
لا تكاد تحس ، وإذا جندي مصري في زيه واداته قد أقبل
فاحتل السفينة ، وكان احتلاله رقيقاً رقيقاً ، اختار له مكاناً
ألقي نفسه فيه إلقاءً ، وأسند سلاحه فيه اسناداً ، وجعل ينفكه
بنظره إلى فريق من السفر ، ويتلهى بالتحدث الى فريق ، ويقول
لي صاحبي مبتسماً : ها نحن أولاء نشرف على أرض الوطن
العزیز .

فتقع في نفسي هذه الكلمة موقعاً غريباً ، لأنها تشعرني بأنني
خرجت من اليقظة فدخلت في النوم منذ فارقت صديقي ذاك
الكریم العظیم .

ثم نهبط من السفينة ففرى ما تعودنا أن نرى ، ونسمع ما
تعودنا أن نسمع ، ونقرأ ما تعودنا أن نقرأ ، ونضطرب ما
تعودنا أن نضطرب فيه من الامر : نوم عميق ثقيل ، وحلم

متصل طويل . فمتى يتاح لي أن أستأنف السفر لعلّي أن أستيقظ
فألقى صديقي ذاك الذي فارق الحياة ، وألقى صديقي هذا
الكريم العظيم ، وأجد نفسي في منعطف من منعطفات السفينة
فأقول لها وأسمع منها وأجاذبها أطراف حديث ان لم يكن
حلوأ كله فان في مرارته راحة ومتاعاً .

للسفينة كيريتيا ٨ مايو سنة ١٩٤٨

القاهرة ١٥ يونيو ١٩٤٨

...والصيف

« أمكنوا وأنا زعيم بتنبيهكم اذا استيقظ الفجر » ، قال ذلك
ومس المائدة أمامه بعصاه مساً رقيقاً . فلما أقبل خادم الفندق
قال له : إذا تمت الساعة الخامسة من صباح غد ، فتحدث في
التليفون رقم كذا ... فسل عن صحة فاطمة ، ثم أُنبئي بها
حين تقدم إلي قهوة الصباح . وكان فاطمة خادماً لنا ، وكان
مدير الجامعة قد استنبط هذه الحيلة ليكلف خادم الفندق تنبيهنا
مع الفجر ، وكنا قد أزمعنا السفر من غد ، وجئنا نودعهم وهم منا
أن ننصرف ، فأراد أن يستبقينا ساعة أخرى من الليل .

وكنا قد خلعنا يوماً قائظاً محرقاً ، ودخلنا في ليل رطب
ثقيل ، وكان الجو من حولنا مائلاً جامداً كأنه مخنوق
مكدود ، قد احتبست أنفاسه احتباساً . وكانت نفوسنا قد وقفت
وملكاتنا قد ثبتت في مكانها . لا تدور بخاطر ولا تفكير . وكانت
الستات تتحرك بكلام لا يكاد يدل على شيء ذي غناء ، ولا يكاد

يعدو ما نحس من حر ، وما نجد من ضيق ، وكان الليل قد
انصف أو كاد ، وكنا نتعجل الابوة لتستريح قبل استئناف
السفر الشاق الطويل ، ولكن اليد التي كانت تحنّ الجو أرسلته
شيئاً فتتنفس خائفاً مشفقاً ، ومست وجوهنا منه أنفاس رقيقة
خفيفة ، لم تكذب بلغنا حتى بعثت الحياة في النفوس . فلما
نهضنا أنكر مدير الجامعة هذا النهوض وهو يقول : الآن وقد
تحف الليل وتحرك النسيم ، وطاب المجلس ، وحسن السمرا
فجلسنا ما شاء الله أن نجلس ، وتحدثنا ما وسعنا الحديث . وعدنا
وقد تقدم الليل نقضي بين النوم واليقظة هذه الساعات المضطربة
التي يقضيها من يحرص على ألا يفوته القطار الأول .

أين أنا ؟ فم أفكر ؟ وماذا أسمع ؟ إن من حولي لأصواتاً
لا أتميزها ، أو لا أتميز منها الا قليلاً . واني لأجد هذا الشعور
الغريب الذي يخيّل الي أنني في النوم ، ويدعوني إلى الراحة ،
ويخيّل إلي في الوقت نفسه أنني مع الناس ، وأن من الحق علي
أن اتخذ هيئة الرجل الاجتماعي . لا أكاد أتميز أصوات قوم
يتحدثون من حولي ، فيهم زوجي وابنائي وجماعة من الاصدقاء
وما أشك في أنهم يذكرون القاهرة وأحداثها في الاسابيع
الاحيرة . أما أنا فقد امتلأت نفسي بجملّة واحدة ترددت علي
كثيراً أمس ، وترددت علي كثيراً صباح اليوم ، وهي «السي
اللقاء» سمعتها أمس من زرته أوزارني مودعاً ، وسمعتها اليوم من
هؤلاء الاصدقاء الكثيرين الذين أبوا الا أن يتكلفوا الغدو مع

الطير ليصافحوني قبل أن أركب القطار . « إلى اللقاء » كلمة كلها أمل ورجاء قد تصدقه الايام وقد تكذبه . فمن يسدري ليلي أعود فأصافح هؤلاء الأصدقاء ، وأسمع لهم وأحدث إليهم ، وأشار بهم في جد الحياة وهزلها . ومن يدري ، ليلي لا أعود ، فلا لقاء ولا حديث ، ولا استماع ولا مشاركة في الحد والهزل . « إلى اللقاء » كلمة ينطلق بها اللسان ، فإذا هسي خفيفة لا وزن لها حيناً ، لأنها كلمة مجاملة لا غير ، ولعل من الناس من يقول لسانه : إلى اللقاء ، ويقول ضميره : إذذهب لا رجعت . وإذا هي ثقيلة على بعض اللسنة ، لأنها مملوءة مثقلة بالمعنى قد أودعها صاحبها كل ما في نفسه الراضية الحنون من حب وبر ، ومن خوف ومن إشفاق ، ومن أمل ورجاء يتحرك بها لسانه ، وإن قلبه ليتحرق حزناً للفراق ، وإن ضميره ليود لو لم يحتج الناس الى أن يودع بعضهم بعضاً ، وإن نفسه لتتمنى أن يتم هذا الرجاء ، وأن يكون هذا اللقاء قريباً . واللسنة تنطلق بهذه الكلمة مسرعة حيناً ، مبثثة حيناً آخر . والاصوات تنبعث بهذه الكلمة مشرقة واضحة ، أو مظلمة قاتمة . والقطار يتحرك والابصار تتبعه ، والأنفاس تخرج من بين الشفاه زفرات المحزون أو نفثات المصدور . كل هذه الأصوات المختلفة المتباينة التي يملؤها الحب والبغض ، ويضيئ في جوانبها الامل ، ويغشيها اليأس بغشاء صفيق . كل هذه الأصوات ، وكل هذه الانفاس ، وكل هذه النظرات ، تصل الى نفسي ، وتقع في قلبي ، فتترك فيه آثاراً وندوباً . وأنا لها كلها شاكر ،

وبها كلها مغتبط ، فهي مظهر من مظاهر المجاملة ، ودليل
على أن لي في نفوس هؤلاء الناس جميعاً مكانة ما ، فإن الحب
والبغض أوضح آيات التقدير .

والحديث من حولي متصل ، تبلغني الاصوات ، وتقع في
أذني كلمات يخلص الى نفسي بعضها ، ويقف بعضها الآخر
دون صياح الأذن . والقوم فيما يظهر يرون أنني مغرق في النوم
فيخلون بيني وبين الراحة ، ولا يوجهون إلي حديثاً ، وما أنا
بالنائم ولا المغرق في النوم ، ولكنها الخواطر تغمر نفسي
وتطيف بها من جميع جوانبها . اني لا ودع قوماً لأستقبل
قوماً آخرين . اني لأغلق من ورائي باباً لأفتح من أمامي باباً
آخر . أغلق باب الحياة العاملة لأفتح باب الراحة والدعة ،
ولاني لألقي من حولي حججاً صفاقاً وسجفاً كثافاً حتى لا يصل
إلي مما حولي شيء ، لأنني أريد أن أفرغ لنفسي ، وأريد أن
أتحدث إليها واسمع منها ، وأحدث بينها وبينني هذا الحساب
الذي طال به العهد وبعد به الزمان ، والذي أقبل عليه كارهاً
له وراغباً فيه . نعم فأنا أنسى نفسي أو أتناساها طوال فصل

العمل في مصر فأريحها واستريح منها . فاذا أقبل الصيف أقبلت معه عليها ، فكان بيني وبينها حساب ما أشد يسره أحياناً ، وما أشد عسره في أكثر الأحيان . وما يكاد يتقدم الصيف أسامع حتى أسامها وتسأمني ، وحتى أنقر منها وتنفر مني ، وحتى أفر منها الى ألوان القراءة وضروب اللهو . وتنكش هي فتختبئ في ناحية ضئيلة خفية من نواحي الضمير .

نعم اذا أقبل الصيف دنوت من نفسي فاستفتحت بابها فاذا فتح لي هذا الباب نظرت ، فما أسرع ما أذكر الخطيئة حين رأى وجهه في صفحة الماء فهجاه . أستعرض ما عملت ، فاذا هو متقوص ، واذا التقصير يعيبه ويفسده ، وأستعرض ما قبلت من الناس فاذا هو رديء مشوه مهين ، واذا أنا قد هدأت حين كانت تجب الثورة ، وسكنت حين كانت تجب الحركة ، ومكثت حين كان يجب الكلام . واذا أنا ساخط على ما أعطيت ، ساخط على ما تلقيت ، منكر لكل ما أتيت ، واذا أنا ضيق بنفسي ، واذا نفسي ضيقة بي . واذا أنا أود لو يتقضي الصيف ، وأتمنى لو أستقبل فصل العدل ، فان النشاط على ما به من قصور وتقصير خير من هذا الهدوء الهادئ الذي لا يرى الانسان فيه الا نفسه . ما أشد عجيبي للذين يطيلون للنظر في المرأة |

كانت هذه الحواطر وكثير أمثالها تضطرب في نفسي متصلة ، فأقف عند بعضها ، وأمر ببعضها الآخر سريعاً ، بينما القطار يسير بنا من القاهرة الى الاسكندرية . وكان حديث رفاقي يصرفني عنها آنأ بعد آن . ولكني لم أكن ألبث أن أعود اليها . أو أغرق فيها ، أو لم تكن هي تلبث أن تعود إلي فتغمر نفسي وتستغرق تفكيري حتى لم يكن يد من الانصراف الموقت عنها إلى ما يشغل المسافر عادة حين ينتقل من القطار الى السفينة ، وبهي نفسي لاقتحام البحر . على ان السفينة لم تكد تغادر النهر حتى أدخلت هذه الحواطر وأمثالها تعاودني . ولست أخفي اني كنت قد مشتها وضقتُ بها ، فتعمدت حينئذ أن ألتمس ما يصرفني عنها ، وان كان ذلك لسهلاً يسيراً ، فقد كان معي من الكتب المختلفة المتنوعة ما يكفي لصرفي عنها الى ما هو ألد منها وأكثر نقعاً . فقضيت أيام السفينة في أكل ونوم وحديث وقراءة في التوراة .

ليس من الضروري ولا من المحتوم ، أن تكون حبراً ، أو قسيساً ، أو شيخاً من شيوخ الازهر ، لتقرأ في التوراة أو الانجيل أو القرآن . وإنما يكفي أن تكون إنساناً مثقفاً له حظ من الفهم والذوق الفني لتقرأ في هذه الكتب المقدسة ، ولتعجد في هذه القراءة للذة ومتعة وجمالاً . بل ليس من الضروري ولا مسمون المحتوم أن تقرأ في هذه الكتب المقدسة ، مدفوعاً الى القراءة فيها بهذا الشعور الديني ، الذي يملأ قلب المؤمن فيحجب اليه درس آيات الله ويرغبه في تدبرها والانعام فيها ، بل تستطيع أن تنظر في هذه الكتب نظرة خصبة منتجة ، وإن لم تكن مؤمناً ولا دياناً ، ففي هذه الكتب جمال فني أظن أنه يستطيع أن يستقل عما فيها من مظاهر الدين والإيمان . أليس فيها ما يمس عواطف النفس فيبعث فيها الرحمة والحنان ، و يملؤها طمأنينة ودعة ، ويثير فيها الغضب والسخط ، و يملؤها نفوراً واشمئزازاً . ثم أليس فيها من الصور الفنية الخالصة ما يستطيع أن يشير

إعجابك لنفسه ، لا لأي شيء آخر . وهذا القصص الساذج الحلو
وهذه العظات والعبر التي تستخلص منه ، وهذه الألوان مسن
للتصوير الذي يتحدث إلى العقل الانساني ، وإلى القلب الانساني -
أحاديث تلائم ما اكتنفهما من الاطوار المختلفة ، والظروف
المتباينة . كل ذلك يكفي لأن يحجب اليك القراءة في التوراة والإنجيل
والقرآن ، تلتهم فيها اللذة والمتعة والجمال والفن وإرضاء الذوق ،
وان لم تكن من الاحبار ولا من الرهبان ولا القسيسين ، ولان
الشيوخ ولا من طلاب الدين والامان . وان في نفسي لحظاً لن
أتردد في تسطره وان كنت اعلم أنه سيُحفظ قوماً ، لاني لم
أعود التردد أمام ما أقدر من سخط الساخطين في نفسي . إن من
الحق على كل مثقف مهما يكن مؤمناً أو ملحداً ، ومهما تكس
ملته أو نحلته - أن يقرأ في هذه الكتب ، ويكثر القراءة على
نفس النحو الذي يقرأ عليه في آيات البيان القديمة والحديثة ،
لا ينبغي في ذلك إلا هذه الآيات من حيث هي آيات . ليس
ضرورياً ان تكون رومانياً او يونانياً أو فرنسياً أو انجليزياً أو
ألمانياً ، لتجد اللذة الادبية عند هوميروس أو سفوكليس
أو فرجيل أو هوجو أو شكسبير أو جوت : وإنما
يكفي كما قلت آنفاً أن يكون لك حظ من ثقافة وفهم وذوق
لنقرأ ، وتلد وتستمتع ، ثم ليزداد حظك من القراءة والسلة
والاستمتاع . كذلك لم تقصر التوراة على اليهود ، ولا الإنجيل
على النصارى ، ولا القرآن على المسلمين . وإنما هي كتب دين
من ناحية ، ومظاهر للأدب والفن والبيان من ناحية أخرى ،

فهي من ناحيتها الدينية من قسمة اليهود والنصارى والمسلمين وهي من ناحيتها الفنية متاع للانسانية كلها . وما رأيك في هذه البيع والكنائس والمساجد والمعابد التي اتقن الفنيون إقامتها وتنسيقها ، وجعلوها آيات فنية في العمارة والنقش والتصوير . أتنظنها مقصورة على الذين يقيمون الصلاة فيها ، ويتوسلون فيها الى آلهتهم بالوسائل المختلفة ، أم هي الى ذلك متاع مباح للذين يستطيعون أن يدوقوا الفن ويحبوه ، ويلتمسوا درسه وفهمه وتحليله ؟ أترى أنه لا يجوز لغير المسلم أن ينظر الى مسجد أو يدخله ، ولا لغير المسيحي أن يتوسم كنيسة أو يتأملها ، وأن الحكومات القائمة آثمة حين تبيح هذه المساجد والكنائس لطلاب الفن غير المسلمين والنصارى ؟ كلا ان هذه الحكومات تأثم وتجرم حين تقصر هذه المساجد والكنائس على الذين يريدون أن يقيموا فيها شعائرهم الدينية ، وتقصي عنها الذين يريدون أن يقيموا للفن شعائره أيضاً . وأنا أحب أن أمضي الى أبعد من هذا ، فأزعم أن من الممكن بل من الاشياء الواقعة أن قراءة طلاب الفن والجمال الادبي لهذه الكتب تنتج للانسانية نتائج لا ينتجها عكوف الاحبار والرهبان والشيوخ على قراءة التوراة والانجيل والقرآن . فهو لا يقرأون متعبدين يلتمسون الدين والإيمان ، وهم يقرأون ويفسرون ويقربون هذه الكتب الى الناس من ناحيتها للدينية وقلما يعنون بالناحية الفنية ، وقلما يدركون دقائق هذه الناحية ان هم عنوا بها أو التفتوا اليها . بينما أولئك يعنون بهذه الناحية الفنية ، وقد تمكنهم هذه العناية أن يفتحوا للناس أبواباً

لحياة فنية قوية الاثر ، بعيدة المدى . أنظر إلى هذه الآثار الفنية المختلفة التي لا تحصى ، والتي تراها منبئة في أقطار الارض المسيحية شرقاً وغرباً ، والتي انما نشأت من تأثر أصحاب الذوق والفن بما قرأوا ، أو ما القى اليهم من العهدين القديم والحديد . أتظن أن لو قصرت التوراة والانجيل على الاحبار والرهبان والقسيسين لحدثت هذه الآثار ؟ وهل تستطيع أن تمحصي كثيراً من الاحبار والرهبان والقسيسين كانوا الى ناحيتهم الدينية اصحاب فن وأدب وذوق ! وأين هو الخبر أو القسيس أو الراهب الذي تأثر بالعهدين القديم والحديد ، فأنتج مثلاً أنتجه فيكتسور هرجو حين قرأهما وتأثر بهما ؟ وسل شيوخ الازهر عن جمال القرآن الفني فلن تجد عندهم غناء ، سيجيبونك أن القرآن معجز وهم مضطرون الى هذا الجواب لأن الدين يلزمهم اياه كما يلزم كل مسلم وان لم يكن شيخاً أن يؤمن بان القرآن معجز . ولكن سلهم عن هذا الاعجاز : ما هو ؟ وما مظهره ومصادره ؟ فلن تجد عندهم غناء . وستجد أشدهم ذكاء ، وأحدهم ذهناء ، وأنفلهم بصيرة ، وأكثرهم اطلاعاً مضطراً الى أن يعيد عليك عن ظهر قلب نظرية الاعجاز والتحدي ، كما صاغها المتكلمون منذ أكثر من عشرة قرون . فأما أن يذوق هو جمال القرآن ، وأما أن يشعر هو بما فيه من مواضع الاعجاز فشيء لا سبيل اليه . وان زعمه لك فلا تصدقه ، لأن الشعور بالجمال الادبي موقوف على درس الادب نفسه واتقان اللغة وتعمق أسرارها ودقائقها . وليس شيوخ الازهر من هذا كله على شيء .

وسل شيوخ الازهر وكثرة القسس والرهبان عما في المساجد
والكنائس والاديرة من الجمال الفني ، فلن تجد عندهم غناء .
وأنا أراهن على أنك لن تجد بين شيوخ الازهر من يستطيع
أن يؤرخ الازهر نفسه من الناحية الفنية ، فضلاً عن غيره من
المساجد ، فضلاً عن تذوق هذه الناحية الفنية ، وتكوين رأي
فيها . حيل بين شيوخ الازهر وبين هذا ، وأتبع هذا - لا أقول
لغيرهم من المسلمين - بل لغيرهم من النصارى وأهل الديانات
والتحل الأخرى . فسل مدير دار الآثار العربية وهو فرنسي
مسيحي يؤرخ لك مساجد القاهرة كلها ، وبحال لك ما فيها من
ضروب الجمال الفني على اختلافها وتنوعها .

كل ما أريد من هذه الاطالة إنما هو أن أصل إلى أن الكتب
الدينية ، والعمارات الدينية ، لا ينبغي أن تكون وفقاً على أصحابها
وحدهم ، وإنما هي متاع للإنسانية كلها كغيرها من الآثار
الفنية التي كان لها حظ عظيم في تكوين نفسية الأمم والاجيال .
وإذا كان هذا حقاً - وهو حق بل هو واقع كما ترى -
لفقد بقيت خطوة يجب أن نخطوها . ولست أدري أيتاح لنا أن
نخطوها في هذا العصر الذي نحن فيه ؟ أم يحول بيننا وبينها الجهل
والحمود ؟ إذا كان من حق الناس جميعاً أن يقرأوا الكتب
الدينية ويدرسوها ويتذوقوا جمالها الفني ، فلم لا يكون من
حقهم أن يعلنوا نتائج هذا التذوق والدرس والفهم ما دام هذا
الاعلان لا يمس مكانة هذه الكتب المقدسة من حيث هي كتب
مقدسة ، فلا يفض منها ، ولا يضعها موضع الاستهزاء

والسخرية والنقد ؟ وبعبارة أوضح : لم لا يكون من حق الناس ان يعلنوا آراءهم في هذه الكتب من حيث هي موضوع للبحث الفني والعلمي بقطع النظر عن مكانتها الدينية ؟

أما الغربيون فقد كسبوا لأنفسهم هذا الحق . وهم يدرسون الكتب الدينية والسماوية وغير السماوية ، ويعلنون نتائج درسهم في حرية وصراحة ، منهم الغلاة في التعصب لها ، والغلاة في التعصب عليها ، والمقتصدون بين أولئك وهؤلاء . وأما الشرقيون فقد كانوا أيام الأمويين والعباسيين آخذين في أسباب هذه الحرية والصراحة ، يدرسون ويعلنون نتائج درسهم دون أن يتعرضوا لكثير من الخطر ، أو الأذى . ولكنهم لم يكادوا يفقدون سلطان السياسة العربية حتى تورطوا في شيء من الجهل والجمود حرّمهم هذه الحرية والصراحة ، وجعل حسهم فيما يمس الدين يصبح حاداً رقيقاً شديد التأثير ، سريع الانفعال . ثم كان هذا العصر الحديث ونهضت شعوب الشرق العربي ، وطلبت حرية الرأي ، كما طلبت الحرية السياسية والاقتصادية ، في ذلك كله ، ووصل بعضها إلى حظ لا بأس به . ولكن الحس الديني ما زال في الشرق العربي رقيقاً حاداً كما كان . ولعله قد أصبح في هذه الأيام أشد رقة وحدة ، وأسرع تأثيراً وانفعالاً ، لأن الأهواء السياسية الناشئة قد أخذت تستغل الدين طلباً للتغلب والفوز . وأنا أعلم أن هذا طور انتقال وأن استغلال السياسة للدين في الشرق العربي إنما هو نتيجة الجهل وقلة التجربة ، وأن هذه الحال لا بد أن تحول ، ولا بد من أن

يشعر الساسة غداً أو بعد غد بأن استغلال العواطف الدينية
لمصلحة الأهواء السياسية شر منكر يضر كثيراً ولا يغني شيئاً :
أعلم هذا ، وأعلم أنا متتهون غداً أو بعد غد إلى هذه الحرية التي
كسبها الغربيون في العصر الحديث ، والتي استمتع بها العرب في
الشرق حيناً إبان القرون الوسطى . ولكني آسف أشدّ الأسف
لهذا الوقت الذي نضيعه ونسرف في إضاعته ، ونحرم فيه - إن لم
أقلّ لذة البحث والدرس - فلذة الحرية وإعلان الرأي على أقل
تقدير .

خطر لي هذا كله في مضجعي من السفينة وقد آويت إليه
لأستريح بعد أن فرغت من قراءة سفر التكوين . فكانت السفينة
تقرب بسرعة من مضيق صقلية وكان المسافرون يزدحمون على
الجسر ليروا ما سيتكشف عنه الأفق بعد دقائق من سواحل هذا
المضيق .

كانت السماء صافية ، والجو معتدلاً . وكان البحر هادئاً
يداعبه نسيم طلق خفيف ، وكأنما كانت السفينة تنزلق على
سطحه الأملس في دعة المطمئن المبسم للحياة . وكان السُّفَرُ
أفراداً وجماعات يرسلون أعينهم في هذه الناحية أو في هذه ،
ينظرون إلى إيطاليا أو صقلية . وكان هنا وهناك على الجسر
سيدات قد استلقين على كراسيهن الطوال يمعنّ فيما في أيديهن
من كتب لاشك في أنها كانت كتباً قصصية ، وربما رفعت
إحداهن رأسها ، ومدت طرفها مدأً طويلاً كأنما تريد ان تأخذ
مما حولها صورة كاملة قوية ، حتى إذا استوفت حظها من ذلك
عادت إلى قصصها ، وغرقت فيه ريثما تدفعها حاجتها إلى النظر
والاستطلاع فترفع رأسها وتمد طرفها مدة طويلة أخرى . وكان
في ضالونات السفينة جماعات من الرجال والنساء ، منهم من
يتحدث همساً ، ومنهم من يقرأ ، ومنهم من يداعب البيانو ،
فأما « البار » فقد امتلأ بجماعات انتحى بعضها إلى ناحية ورق

اللعب ، وأخذ بعضها الآخر في حديث لا يخلو من لغط تقطعه من وقت إلى وقت جرع من أشربة مختلفة . وفي ناحية من نواحي هذا البار جلس عالمان من علماء الآثار المصرية وأخذتا يتحدثان عن نقوش ثم عن كتب ، ثم يتغمسان شيئاً فشيئاً في نحو اللغة المصرية القديمة ، وفعلها واسم الفاعل فيها بنوع خاص ، وهما يتجادلان ويستظهران الأدلة والنصوص حتى نسيا كل النسيان السماء والماء وإيطاليا وصقلية والسفينة وهذه الجماعات اللاغطة من حولهما . وكان أمامهما إلى الناحية الأخرى من المائدة رجلان يعبثان بالعلم والعلماء ، والبحث والباحثين ، ويتناولان كل شيء في هزل ودعابة لا تحفظ فيهما : أحدهما أستاذ تاريخ في الجامعة المصرية والآخر أستاذ آداب .

ومضت السفينة في طريقها ، ومضى المسافرون فيما كانوا فيه حتى دقت أجراس العشاء ، فتفرق أصحاب المائدة الأولى وبقي أصحاب المائدة الثانية فيما كانوا فيه . ثم تدق الأجراس مرة أخرى فيتفرق هؤلاء ويعود أولئك فيستأنفون ما كانوا فيه ، من حياة فارغة فيها عبث ولعب ، وفيها نشاط وفيها شراب وفيها حديث كثير .

وكذلك يقضي أكثر الناس أيامهم في السفن ، وفيما تريد أن تقضي هذه الأيام ؟ وإنما انصرف السفر عما كانوا فيه من جسد الحياة اليومية ليستريحوا ويرفهاوا على أنفسهم ، فكل يلتمس من الراحة ما يلائم ذوقه ومزاجه ومقدرته على الراحة . على أن من الحق أن نلاحظ أن ليست أيام السفينة أيام راحة

وترفيه بريئين بالقياس إلى الناس جميعاً ، فمن الرجال من يتخذ من هذه الأيام فرصة لعله لا يصادفها كثيراً في حياته العادية ، فرصة لاتباع النساء ومغازلتهم ومداعبتهم باللحظ حيناً وباللفظ حيناً آخر . ومن الرجال من يتخذ هذه الأيام والليالي فرصة لعله لا يصادفها كثيراً في حياته العادية ، وينتهازها ليتجمل بأحسن ما عنده من ثياب ، ويمشي قبل الغداء وبعد العشاء على الجسر ذاهباً جاثياً يكاد جسمه يعلن عن نفسه في هذه الأشكال المختلفة التي يأخذها حين يقف وحين يتحرك ، وحين ينظر وحين يلتفت وحين يشعل السيجارة أو السيجار ، وحين يرسل الدخان من فمه . ومن النساء كذلك من تتخذ هذه الأيام والليالي فرصة للهو والعبث والدعابة ، وفرصة للتبرج ولإبداء الزينة ، وفرصة على الجملة — للاستمتاع بنوع من الحياة قلما يظفرون به في حياتهن العاملة في المدن . أما سمر الليالي وما فيه من قصف وعزف ورقص ومناجاة ومناغاة ، فليست أحدثك عنه لأنني لا أذكر أنني شهادته قط منذ تعودت أن أعبر البحر ، إنما قصاري في هذه الأسفار إذا فرغت من العشاء أن أصعد إلى الجسر فأذهب عليه وأجئ حيناً — مهما بطل فلن يتجاوز إحراق سيجارة أو سيجارتين ، ثم أهبط إلى حيث مضجعي فأوي إليه . وأنا لا أذوق النوم في السفينة إلا غراراً فما أطول ما يكون في هذه الليالي الطوال بيني وبين نفسي من حديث . أهو حديث حلو؟ أهو حديث مر؟ أهو مزاج من الحلو والمر؟ لست أدري . ولكنني أعلم أنني أحب هذه الليالي ، وأنس إليها أشد الأنس ، لأنني أفرغ فيها إلى نفسي ، ولأنني

أجد فيها من الحرية والخلوة ما لا أجده في مكان آخر ولا في زمان آخر . ولعل كثيراً من الناس لا يفهموني إن قلت إنني أجد لذة غريبة قوية إذا تقدم الليل ، وهدأت حركة الناس جميعاً في السفينة ، وكنت وحدي يقطاً أو كاليقظ ، أسمع لاصطخاب الموج حين يكون البحر هائجاً ، ولعزف الريح واصطفاف الموج حين يكون البحر هادئاً ، ولما يكون في الحالين من هذا الصوت الأصم القوي الذي تبعثه السفينة في اطراد وتشابه واستمرار منذ تبحر الاسكندرية حتى تصل إلى مرسيليا . نعم أجد لذة غريبة في هذه الاصوات التي أسمعها ، وربما حاول خيالي أن يلائم بينها ، ويؤلف منها موسيقى فيها قوة ، وفيها عذوبة ، ولها قلادة غريبة على أن تخلطني بها . فإذا أنا جزء لا يكاد يتفصل من هذه الطبيعة التي تتألف في خيالي من الموج والريح والسفينة . وربما كانت الخواطر التي تشغلني من حين إلى حين قوية جذابة ، فتملاً نفسي وتملك علي قلبي وتصرفني عن كل شيء ، فلا أحس ولا أسمع وإنما أنا في تفكير مطلق طويل . حتى إذا مضيت في هذا التفكير إلى غايته أحسست كأنني قد فقدت شيئاً وإذا أنا أجمع إليّ حسني وعقلي وشعوري ، وأتخلص قليلاً قليلاً من هذه الخواطر التي غمرتني ، وأتلمس العودة إلى عالمي الذي أجد فيه الانس واللذة والدعة – واللبل مظلم مدهم – عالم الأصوات المختلطة تتألف من الموج والريح والسفينة . كذلك أقضي ليالي بن الاسكندرية ومرسيليا .

فقيم كنت أتحدث إلى نفسي هذه الليلة بعد أن آويت إلى مضجعي

نحو الساعة العاشرة ، وقد أثبت أن قد بعد ما بيننا وبين المضيق حتى لا تُرى السواحل ، وإنما هي السماء والماء يمتدان ما امتد الألق أمام الناظرين . كنت استحضر المرات المختلفة التي أخذت فيها السفينة ، وعبرت فيها البحر من مصر إلى فرنسا . وإذا استحضرت هذه المرات فأنما استحضر ما كان يرافقني من الخواطر فيها . وكانت الخواطر التي تعرض لي أثناء هذه الليلة ولا تكاد تفارقني خواطر سفري الأول من الإسكندرية منذ أربع عشرة سنة ، ثم سفري الثاني من بور سعيد منذ ثلاث سنوات ثم سفر آخر من بور سعيد منذ أربع سنين .

كنت أراني حين تركت مصر لأول مرة شيخاً معتماً قد صعد إلى السفينة يتعثر في أذيال جبته وقفطانه اللذين كانا يزيدانه حيرة إلى حيرته الطبيعية التي قضت بها عليه عاهته التي حالت بينه وبين الضوء . فلم أكد أصل إلى غرفتي حتى طارت العمة عن رأسي . ولقد أريد أن أتذكر إلى أين ، فلا أجد إلى ذلك سبيلاً . كل ما أعرفه أنني خلعتها حين دخلت الغرفة ، ثم لست أدري إلى أي حال صارت . ولو قد عثرت عليها لحفظتها تذكيراً باقياً ، ولوجدت شيئاً من الحنان والحزن والأمل حين آخذ بين يدي ذلك الطربوش الكالح ، وتلك الخرقه التي ما أظن أنها كانت يومئذ ناصعة البياض . وخلعت الجبة والقفطان ، وأنا أعلم إلى أين صارا ، منحهما أخي هدية لسيدة كان يألفها في فرنسا ، ولست أدري ماذا اتخذت منهما . خلعت العمة ، وخلعت الجبة ، وخلعت القفطان ، ودخلت في هذه الثياب الأوربية . فكسّم

ضيق بها ، وكم كرهتها ، وكم ندمت على جبتي وقطاني طوال
الاسبوع الذي قضيته على ظهر « اصبهان » رحمه الله . فقد
هوت « اصبهان » إلى قاع البحر ، وعبث الموج بأجزائها ، كما
عبث بأجزاء عمي في أكبر الظن .

وكان البحر في هذه السفرة يروغي ويخيفني ، وبملا قلبي
هولاً ورعباً . كنا في نوفمبر ، وكان البحر هائجاً شديداً
المهاج ، وكانت سفينتنا صغيرة ضئيلة عتيقة تحب الترحح والرقص .
فكانت تعلق وتهوي ، وتميل ذات اليمين وذات الشمال ، وكانت
الرياح هوجاء في أكثر الوقت ولا سيما إذا أظلم الليل . وكنت
أسمع عصف الرياح وقصفها ، واصطخاب البحر وهديره ،
وكنت أحس اضطراب السفينة عنيفاً قوياً ، ولم أكن أرى على
ذلك كله شيئاً . فتصور هذا الذي لم يتعرض قط لخطر ، ولم
يعرف قط الحياة المضطربة العنيفة ، ولا حظ له من العلم بالبحر
ولا تجربة له فيه ، ولم يقدر الله له حظاً من النور يرى به أن هذا
الاضطراب وهذه الضوضاء وهذا الموج المتركب مهما يمكن
عظيماً فهو لا يعرض السفينة للهلكة ولا للعطب . واشتد الذعر
وكدت أياس من كل شيء ذات ليلة حين وقفت السفينة فجأة ،
وقيل إن بعض أدواتها قد عطب . حيث ذكرت مصر في حسرة ،
وذكرت فرنسا في لوعة ، وامتلقت على سريري أنظر الموت
بينما نهض صديقي ... فلبس وازين لأنه كما كان يقول لا
يريد أن يموت في قميص النوم . ثم انجلت تلك الغمة ، واستأنفت
السفينة سيرها هادئة في جو هادئ . وما هي إلا ساعات حتى

أشرفنا على الساحل الفرنسي . ومضت بعد ذلك سنة كان فيها ما شاء الله من حلول الأمر ومره ، وإذا أنا في آخر ديسمبر سنة ١٩١٥ في القاهرة أتمياً لاستئناف الرحلة إلى فرنسا بعد أن كنت قد يئست من عبور البحر مرة أخرى ، وأقبلت ذات مساء إلى الجامعة أودع موظفيها قبل السفر إلى بور سعيد . فيا هول ما سمعت حينئذ . أنبأني السكوتير أنني قد اضطر إلى البقاء ، لأن الحكومة الإيطالية ترفض أن أمر بأرضها إلى فرنسا . ولم هذا ؟ لأنك ضيرروا إيطاليا لا تريد أن يمر بأرضها أو يستقر فيها لإلّا كان قادراً على أن يعيش دون أن يكلف الحكومة الإيطالية مشقة أو عناء . وإذن فلن تسافر غداً إلا أن يأتي الله بما ليس منتظراً ، لا أذكر أن شيئاً وقع من نفسي موقعاً مؤثماً كهذا النبأ . وكانت لهذا الألم مصادر مختلفة : أولها تأجيل هذا السفر الذي امتدت إليه نفسي بكل قوتها ثلاثة أشهر كاملة . والثاني علة هذا التأجيل وهي أنني ضيررت لست كغيري من الناس ، ماذا أصنع في مصر وليس لي عمل فيها ، ولا مورد للحياة ، ثم أشياء أخرى كانت تمتلئ بها النفس ليس إلى تفصيلها من سبيل .

وسأشكر ما حييت - لرئيس الجامعة يومئذ ، والمدير دار الكتب يومئذ ووزير المعارف حينئذ أملي هسند السطور وللمرحوم علوي باشا - ما كان لهم من جهد حميد وبلاء حسن في تذليل هذه الصعوبة الطارئة والعقبة المفاجئة ، فقد اتصل رئيس الجامعة بوزير إيطاليا المفوض ، وكان من أثر هذا السعي أن أذن لي بمرافقة أصحابي إلى فرنسا عن طريق

نابولي .

وانتصف نهار الغد وإذا نحن على ظهر سفينة هولندية صغيرة
ظرففة انيقة قادمة من الشرق الأقصى عليها قوم فرحون، فيهم
شباب نشيط مرح . وفيهم بنوع خاص ناهد لم تبلغ الخامسة عشرة
بعد ، رأيت صاحباً لي في عمته وجبته وقفطانه ، وكان وسيماً
أنيقاً متظرفاً . فأنست إليه ، وفتنت به أو بزيه . وكان أنسها
وفتتها موضع حديثنا وعشنا حتى اقلعت السفينة ، وتركنا صاحبنا
الشيخ في زورقه يتبادل مع الفتاة التلويح بالمناديل . وأقبل الليل
وآوينا إلى مضاجعنا آمنين مطمئنين رغم ما كان يُذكر من حديث
الغواصات . ألم نكن في سفينة محايدة لا سبيل عليها للمتحاربين ؟
ولكن باب الغرفة يطرق ثم يؤذن للطارق فيدخل ، وإذا هو
يتحدث إلينا في فرنسية مضطربة أنه إذا دق الجرس فأسرعوا إلى
جسر كذا ، وقفوا أمام الزورق رقم كذا ... قال صاحبي : وفيم
يدق الجرس ؟ قال الطارق : وهل نسيت الغواصات ؟ وانطلق
وأقفل الباب من ورائه . وكان الدوار قد أخذ يلعب برأس
صاحبي ، فانضم إليه الخوف والوجل . وما أزال اراه يقىء ،
ويعالج الدوار ، ويدعو أمه ، ويذكر إخوته الصغار في لهجة
كانت تؤلمنا وتضحكننا معاً ، وكان هو أسرعنا إلى الضحك وأشدنا
ألماً .

كانت حلوة لذيدة تلك الأيام السعيدة بين بور سعيد ونابولي
آخر سنة ١٩١٥ . ألم أكن قد وفقت إلى العودة إلى فرنسا حيث
باريس ، وحيث السوربون وحيث استئناف الدراسة وتحقيق

الألماني وحيث تلك التي لم تكن قد تجاوزت العشرين من عمرها
والتي فارقتني في مونبلييه أول الصيف على أن نلتقي في باريس
إذا أقبل الشتاء ، والتي عرفت عودتي إلى مصر وإشفاقي من البقاء
فيها ، فكتبت إليّ وضمنت كتابها وردة من ورود فرنسا ما
أزال أحفظها إلى الآن . أكان ما أضمرها في قلبي حباً ، أم كان
مودة خالصة ، أم كان شيئاً بين ذلك لم أكن أتبينه حينئذ وإنما
تبينته بعد ذلك بشهرين كاملين . كانت حلوة لذينة تلك الأيام
بين بور سعيد و نابولي وكان أحلى منها وألذ ذلك اليوم الذي وصلنا
فيه إلى نابولي بل تلك الساعة التي أسرع فيها إلى مكتب البريد
فوجدت فيه كتابين قرأهما عليّ صاحبي مرة مرة . فلما طلبت
إليه القراءة الثالثة قال في شيء من اللطف والسخرية : لعلك تنسى
أن القطار يسافر في الساعة الثالثة ، وأن من الحق أن تسافر ولما
نطف قليلاً في هذه المدينة التي لم نرها قبل اليوم ، ولعلنا لا نراها
بعد اليوم ، وكان أحلى من ذلك وألذ ، ذلك اليوم الذي وصلت
فيه إلى باريس ، بل تلك الساعة التي طرق فيها باب غرفتي ، ثم فتح ثم
أقبل عليّ شخص فصافحني في قوة ومودة وصراحة ، وجلس إليّ
ساعة يسألني وأسأله ويجيبني وأجيبه . ثم افترقنا على أن نلتقي من
غد . والتقينا من غد فما افترقنا منذئذ يوماً ولا ساعة ولا بعض
ساعة إلا أحسست — شهد الله — في نفسي ألم الفراق وشوقاً إلى
اللقاء .

وانقضت في باريس وفي القاهرة أعوام كان فيها ما شاء
الله من حلو الأمر ومره حتى كان يوم ٥ يولييه سنة ١٩٢٤ . وإذا

أنا في بور سعيد كما كنت آخر سنة ١٩١٥ . ولكني لم أكن وحدي ، وإنما كان معي في هذه المرة زوجي وابنائي . وكان معي صاحبي الذي رافقني إلى بور سعيد ، وداعب الفتاة وداعبته على ظهر السفينة الهولندية ولكنه لم يكن في هذه المرة شيخاً ولا متأنقاً ولا متطرفاً ، وإنما كان رجل جد ودعابة لم تفارقه . كنا في بور سعيد ، وكنا نأخذ طريقنا نحو السفينة ، ولكننا كنا نسأل أنفسنا أنبلغها ؟ أنحلى بيننا وبينها ؟ حتى إذا عرض لنا بعض عمال الثغر يطلب الباسبور لم تشكّ زوجي ، ولم أشك أنا في أنه يريد بأمر من الحكومة أن يحول بيننا وبين السفينة ، ولكنه لم يفعل ، فأخذنا الزورق وصعدنا إلى السفينة وجلين . ولم نكد نبلغها حتى آوينا إلى غرفتنا فلم نفارقها إلا بعد أن أقلعت السفينة . وكان صاحبي قد صعد معنا ، ولكننا فقدناه ساعة حتى اذا دقت الاجراس مؤذنة باقلاع السفينة أقبل فودع مسرعاً وانصرف ولكنه همس في أذني قائلاً : يوم كيوم السفينة الهولندية . ثم عرفت منه بعد ذلك أن قد كانت له قصة فيها غزل ودعابة ، ولكنها دعابة لم تكن من البراءة بحيث كانت تلك .

وأقلعت السفينة ومضت في سبيلها ، وخرجت من الغرفة وصعدت الى الحسر وأنا أتمثل في صديق وإخلاص وابتهاج قول ذلك الشاعر القديم :

عَدَسٌ مَا لِعَبَادَعَلَيْكَ إِمَارَةٌ نَجُوتِ وَهَذَا تَحْمِلِينَ طَلِيقُ
مِم كُنْتَ أَخَافُ ؟ وَمِم نَجُوتِ ؟ كُنَّا يَوْمَئِذٍ أَشَدَّ مَا نَكُونُ فِي
مَصْرِ فِرْقَةٍ وَانْقِسَاماً . وكانت الخصومة السياسية عنيفة منكراً ،

وكانت الحكومة القائمة قد أمرت بالتحقيق مع « السياسة »
وكتابتها . وكانت النيابة قد دعيتني وسألني فأبيت ان اجيب
واضطرت إلى وقف التحقيق . وكانت وزارة المعارف قد تسلمت
الجامعة . وكانت قد ماطلت في الإذن بالسفر ، ثم أذنت
كارهة . وكنت أنتظر من وقت لآخر أن تأمر النيابة بالقبض ثم
السجن . وكنت أحرص ما أكون تلك السنة على السفر إلى فرنسا
لاستريح وأريح زوجي وابني . فليس غريباً ان أتسم الهسواء
الطلق بكل صبري منشداً :

« نجوت وهذا تحملي طليق »

..... والآن تمضي السفينة بنا هادئة مطمئنة مسرعة بين
مضيق صقلية ومضيق بونيفاسيو والليل مظلم مدهم . وكل شيء
هادئ وادع إلا هذه النفس ، فانها ثائرة مضطربة مغيظة مخنقة
تستعرض هذه الحوادث التي مرت ، وتستعرض آخرها الذي لم
يفرغ بعد ، وهي تنشد في غيظ وحنق لا في ابتهاج وسرور :

« نجوت وهذا تحملي طليق ... »

ذلك أنني لم أسافر هذه المرة كما تعودت أن أسافر في لبنان
ورضا واستبشار بالسفر ، وإنما سافرت على كره من الناس ،
وعلى كره من نفسي . سافرت ولو استطاع قوم لحالوا بيني وبين
هذا السفر ، ولأقمت في مصر أراهم ويروني ، وأغيطهم
ويكبدون لي .

نعم كل شيء من حولي هادئ حتى موج البحر ، ورياح
البحر ، وحتى صوت السفينة المطرد ، إلا هذه النفس فانها ثائرة

مضطربة ليست بالهادئة ولا المطمئنة ... تذكر سنة ١٩٢٤ حين
سافرت على كره من قوم لو استطاعوا لأمسكونني في مصر ، وأنا
الآن أسافر رغم هذا الشيخ الذي نهض في مجلس الشيوخ يستصرخ
المسلمين ، ويستغيث برئيس الوزراء عليّ ، لأنني - فيما زعم
مسخروه - عرضت الدين للخطر . نعم ، ورغم هؤلاء الشيوخ
الأزهريين الذين أبرقوا إلى رئيس الوزراء من أقصى الصعيد
يستغيثون به لأن الصحف نقلت اليهم أنني عرضت الدين للخطر .
نعم ورغم هؤلاء الشيوخ الأزهريين الذين توسلوا إلى رئيس الوزراء
ألا يدعني أسافر حتى يؤلف لجنة تستوثق من أنني لن أعرض
للدين للخطر أمام مؤتمر المستشرقين في أكسفورد . نعم ، ورغم
قوم كثيرين كانوا يسعون هنا وهناك سرّاً وجهرّاً ، يكيلون
ويعترون ويضللون .

لقد سئمت هذا كله ، وتقدمت إلى مدير الجامعة معتذراً
لهأبى وألح ، وسافرت مغيظاً محققاً على هؤلاء الناس الذين
يتخلون الدين والسياسة وسيلة للكيد ، وبث الفساد في الأرض .
ولأنهم ليعلمون حق العلم أن الدين أثبت وأمكن من أن يعرضه
للخطر رجل كائناً من كان . ولأنهم ليعلمون حق العلم أن هذا
للرجل الذي يكيلون له ، ويسعون به ، أحرص منهم على
سلامة الدين ، والتمكين له في الأرض ، وأقدر منهم على
ذلك ، وأحسن منهم بلاءً في حمايته ، والود عنه ، ولكنهم بين
مأجور ومونور .

نعم كل شيء من حولي هادئ مطمئن حتى موج البحر ،

ورباح الجو ، وحتى صوت السفينة المطرد ، وحتى إنني لأسمع
ابنتي النائمة في سريرها تلقاء سريرى يتردد نفسها البريء في
صدرها تردداً هادئاً منتظماً . فما لهذه النفس الثائرة لا تهدأ ،
وما لها لا تتصل بهذه الطبيعة الهادئة من حولها ؟ أكل شيء
في مصر كان يدفع إلى الثورة النفسية ، ويهيج عواطف الغضب
والغضب ؟ ألم يكن في مصر ما يبعث في النفس شيئاً من الرضا ،
ويحمل إلى القلب شيئاً من الطمأنينة ؟ بلى . وإنني لجاحد منكر
للجميل إن نسيت هذا الرجل الذي لم أكن أعرفه ولم يكن يعرفني
إلا بما كان بيننا من خصومة سياسية عنيفة ، والذي وقف أمام
البرلمان كله وهو يتألف من كثرته الحزبية وقفة الحزم والمروءة
والإباء والدفاع عن حرية الرأي . نعم إنني لجاحد منكر للجميل
إن نسيت موقف علي باشا الشمسي أمام النواب وأمام الشيوخ ،
وأمام أولئك وهؤلاء من السعاة وأصحاب الكيد ، لا يضطرب
ولا يتردد ولا يفرط . وإنني لجاحد منكر للجميل إن نسيت أنني
ذهبت أودعه ، وأشكر له بعض مواقفه أمام مجلس الشيوخ ،
فقال لي : لست أقبل منك شكراً ، لأنني لم أقف هذا الموقف
دفاعاً عنك ، وإنما وقفته دفاعاً عن رأي ، وأنا أعلم أنهم بأنهم
بك ، ويكيدون لك ، ولكني لا أسمح بأن يكون للكيد والسعاية
أثر في الحياة العامة وأنا وزير . فسافر مطمئناً ، وثق بأنني لم
أبرح الأرض حتى أقضي على هذا الكيد — هو الآن بعيد عن
الحكم ، ولم تكن بيني وبينه — وما أظن أن ستكون بيني وبينه —
صلة غير هذه الصلة التي تحملني على أن أذكر مروءته ووفاءه

للحق والحرية ، والتي تحملني على أن أسطر هنا ما أشعر به من
أسف شديد ، لأن وزارة المعارف حرمت رجلاً كهذا
الرجل . أأذكر عدلي وموقفه يوم ثارت الثائرة ؟ كلا . فما
كنت أنتظر من عدلي غير هذا . أأذكر ثروت وموقفه يوم
استقلت فرفض الاستقالة ، ويوم سعى اليه الساعون ، وكاد
عنده الكاثولون فأبى الا ان يكون وفيّاً شريفاً ؟ كلا ، فلم
أكن أنتظر من ثروت غير هذا . فأما علي الشمسي باشا فأني
أذكره ، ولن أفرغ من الثناء عليه ، لأنني أظن بل أتق أن قليلاً
من الناس يستطيعون أن يقفوا مثل مواقفه بازاء خصم سياسي
تظاهرت عليه قوى — أقل ما توصف به أنها شديدة الاثري
حياتنا العامة كلها ، وفي حياة الوزراء بنوع خاص .

نعم وهؤلاء الذين كنت أعمل معهم في الجامعة ، والذين
كانوا إذا أصبحوا قرعوا وتلقوا احتجاجاً أو اعتراضاً أو نذيراً ،
فلا يزيدهم ذلك الا حرصاً علي ، ورفقاً بي ، وتشجيعاً لي .
هؤلاء الاصدقاء الذين كانوا كلما اشتد الامر وجد الحد ،
افتنوا في التماس الوسائل لتسليتي والتسرية عني .

أليس هذا كله يكفي لتهدئة هذه الثورة واختاد هذا الغيظ ؟
بلى ، بل هو يكفي لأكثر من ذلك . يكفي لاحياء الامل ،
وتنشيط الرجاء ، وتقوية الثقة بأن ما في مصر من أعراض الشر
سحابة صيف لا تلبث أن تبددها هذه الشمس المشرقة الحارة
التي تمنلى بها نفوس الاخيار من أذكىاء مصر وأولي الرأي
والضمائر والقلوب والاخلاص فيها ، وإنهم على قتلهم لكثير .

نعم يجب أن تهدأ هذه النفس الثائرة ، وأن يطمئن هذا القلبُ المضطرب ، وأن تخمد جنوة هذا الغيظ ، وأن يقوم الأمل مقام اليأس ، والنشاط مقام الحمول ، وأن أستأنف القراءة إذا انجلى الليل وبسطت الشمس رداءها الفضي على هذا البحر الهادئ الصافي ، وانقضت هذه الحركة التي تأتيها مصبحين في السفينة بين افطار وتدخين وتبهيؤ وصعود الى الحسر ووضع للكراسي في موضعها وتبادل التحيات والسجائر . نعم يجب ان استأنف قراءة التوراة ، فقد فرغت من سفر التكوين ، ولست أشك في اني سأجد في قراءة سفر الخروج لذة فنية وعقلية ودينية معاً .

وأصبحت ممثلة النفس بحديث الازهر ، لا يفارقني ولا أنصرف عنه ، كأنما فرضت علي التفكير في الازهر والازهرين قوة قاهرة لا يستطيع لها دفعاً ، ولا أجد عن الاذعان لها محيصاً ، كنت أفكر في الازهر مشفقاً آملاً ، على شيء من السخط بين هذا الامل وذلك الاشفاق. ولم كنت أفكر في الازهر هذا التفكير الذي حملني على أن أرفض في رفق ما عرض علي صاحبي من قراءة التوراة ، حين تمت الساعة العاشرة ، وفرغنا من حركة الصباح على السفينة ، ولم يكن لنا الا أن نقسراً أو نتحدث حتى تدق أجراس الغداء ؟. هذه زوجي قد اعتزلتنا وعن يمينها كتاب وعن شمالها علبة فيها من أدوات الخياطة والتطريز ما شاء الله ، وهي تنسم هواء البحر ، وتلقي نظرة على اليمين وأخرى على الشمال ، وكأنها تسأل نفسها ، أناخذ الكتاب أم تفتح العلبة ؟ وهذان ابناي في نشاط ومرح وصباح واضطراب ، يجريان ويقفان ، ولا يدريان بأي أطراف اللعب

يأخذون . وهؤلاء المسافرون يلقي بعضهم بعضاً في تحية وبشر
 وحديث عن البحر والجو ، وقرب الوصول الى مرسيليا . وهذا
 صاحبي قد هباً لي كرسياً وأجلسني في دعة ورفق ، ثم هباً
 كرسيه في بطن ورزاة لا تلائم سنه ولا شخصه ، ثم جلس
 متاقلاً متباطئاً وهباً صحفه وهو يسألني : ألبداً في قراءة التوراة ؟
 فأجيبه : لا . فيسألني : فأني كتاب آخر تريد أن أقرأ ؟ فأجيبه :
 لا شيء . وما أشك في أنه ابتهج بهذا الجواب واعتبط ، فقد
 ظل لحظات ثم نهض وعاد وغرق في كتاب من هذه الكتب التي
 تعود أن يغرق فيها متى أغفيتها من العمل ، لأنه يتهيأ
 للامتحان . وتركت أنا زوجي مترددة بين الكتاب والثوب ،
 وابني مضطربين على جسر السفينة ، وصاحبي غرقاً في المدني
 أوالدولي ، ومضيت أنا أفكر في الأزهر ، أفكر فيه حين دخلته
 لأول مرة أشهد صلاة الجمعة ، وكنت أعتقد أن قديمي تطان
 أشد بقاع مصر تقديساً وطهرأ ، وأفكر فيه حين كنت أختلف
 اليه أول النهار وآخره وإيانه - مقتنعاً بأنني حين أختلف اليه
 أودي واجباً لا يعده واجب ، وأقدم الى نفسي أقوم اللذات
 وأقواها ، وأفكر فيه حين أخذ هذا الشعور يفتري ويضعف ،
 وحين كنت أختلف الى الأزهر في شيء من الكره والملل ، مقتنعاً
 بأنني إنما أفعل هذا لأخلص من واجب ثقيل ، وأفكر فيه حين
 كنت أؤثر عليه دار الكتب ، وحين كنت أزوره لئلا أسمع فيه درس
 الأدب ، ولأعبت فيه مع طائفة من الرفاق بجاعة من الشيوخ
 كانوا يكرهوننا مخلصين ، وكنا نكرههم مخلصين أيضاً .

وأفكر فيه حين أقصيت عنه معيلاً راضياً وساخطاً في الوقت نفسه . ثم أفكر فيما بيني وبينه الآن من صلوات لا أكاد أحدها إلا في مشقة وعسر . فهو يكرهني ، وأنا أشفق عليه وأرثي له . ولعلي لا أقول الحق إن لم أضف أنني أضيق به من حين إلى حين . نعم كنت أفكر في الأزهر مستعرضاً هذا كله جملة وتفصيلاً واقفاً من وقت إلى آخر عند قصة تضحكتني ، وأخرى تغضبني ، وثالثة تبعث على شفتي ابتسامة لا تخلو من غيظ ورثاء ، ولكن لم كنت أفكر في الأزهر ؟ أمي تلك الخواطر التي كانت تضطرب في نفسي الليلة البارحة فتبعث فيها الغضب والثورة ؟ نعم وهذا الأمل الذي أحسسته قبيل سفري حين نشرت الصحف تنصيب الشيخ الحديد ، وتنصيب المفتي الحديد . وإن كنت لشديد الأسف لأنني لم أستطع أن أصافح هذين الشيخين قبل أن أبرح القاهرة ، وإن كنت لشديد الحيرة حين كنت أحاول أن أحل هذا الشعور الذي وجدته حين قرئ علي في الصحف رفع هذين الشيخين إلى منصب الرياسة الدينية العليا ، وإلى منصب الافتاء .

ذلك أنني أعرفهما وتصل بيني وبينهما صلوات قوية ، وتصل بيني وبين أحدهما بنوع خاص صلوات من تلك التي يحرص الناس على تقديمها ، ويجلدون شيئاً من اللذة في تذكرها واستعراضها . أحدهما كان أستاذاً لي ، والآخر كان شيئاً بين الأستاذ والرفيق . سمعت على أحدهما دروساً في علم الكلام وكنت به معجباً ، وعنه شديد الرضا . وأسفت أشد الأسف حين ولي القضاء في

السودان فترك الازهر والدرس فيه . وكان الآخر زميلاً
لأخي في الدرس ، وجاراً له في المسكن ، وشريكاً له في الحياة .
و كنت بحكم هذا كله أعاشره وأخالطه أشد المخالطة في جماعة
من زملائه وشركائه في الحياة فرقتهم الايام الآن ، وبعدت
بيني وبينهم الآماد ، واختلفت بيبي وبينهم الصلات ، إلا هذا
الشيخ فقد بقيت الصلة بيبي وبينه على ثقل الدهر ونسبدل
الظروف واختلاف الحوادث - كما كانت متينة يسيرة ، لا
كلفة فيها ولا مشقة . هو الآن مفتي الديار المصرية ، وكان
قبل ذلك رئيساً للمحكمة المصرية الابتدائية ، وكان قبل ذلك صاحب
الصلاة في القصر الملكي ، وكان قبل ذلك يشغل منصب القضاء
في المحاكم المختلفة ، ولكنني حين أتصوره الآن أجرده من
كل هذه المناصب ، ومما تخلع عليه من جلال وهيبة ، ولا أتصور
منه إلا هذا الطالب الازهري الذي كنت أعرفه ساذجاً يتوقد
ذكاء ، ويتقطع نشاطاً ، حاداً في المناقشة ، غليظ الصوت .
كأنه الرعد حين يقرر مسألة من المسائل ، شديد الحياء شديد
التواضع . قوي الإيمان ، لا حد لإخلاصه حين يواجه أمراً
من الأمور ، أو يعامل صديقاً من الاصدقاء ، شديد التأثير بما
يقراً ، يؤمن به حتى يقرأ ما هو أشد منه تأثيراً في نفسه ، فيتبدل
رأياً برأي ، ونحواً من التفكير بنحو آخر . قوياً بنوع خاص في
علوم المنطق والفلسفة والتوحيد والفقه والاصول ، مزدرباً
الى حد غير بعيد علوم النحو والصرف والبيان وما يتصل بها
من علوم الرواية . عاش في البيئات المختلفة طالباً وأستاذاً

وفاضياً ، ولكنه ظل كما كان رجلاً من أهل الريف ، فيه كل ما في الريفيين من وداعة وسذاجة ، وفيه خبرة ما في المتحضرين من ذكاء ونشاط .

كان هذا الشيخ كما كان الشيخ الآخر ، وكما كان هذا الجيل الذي درس في الازهر آخر القرن الماضي وأول هذا القرن — من أشد الناس تأثراً بالشيخ محمد عبده ، وتعصباً له ، وإيماناً به ، وافتتانه بما كان يدعو اليه . إن هذا الجيل الذي أشير اليه لخلقه بالعناية ، وإن تأريخنا العصري ليفقد حلقة من حلقاته القيمة إذا لم ينهض بعض المؤرخين لدرس هذا الجيل من الازهرين ، وتقييد ما كان يملؤه من نشاط ، وما كان يسيطر عليه من إيمان بالمثل الأعلى ، وحرص على التجديد والإصلاح ونفور من القديم ، وسخط وازدراء لأنصاره من الشيوخ .

كان هذا الجيل يؤمن إلى حد التعصب بحرية الرأي ، وبغض الجمود ، ووجوب الاجتهاد ، وتحطيم هذه الاغلال التي كانت تأخذ بأعناق الشيوخ وأيديهم وأرجلهم . وكانوا يختلفون إلى دروس الشيخ محمد عبده في التفسير والبلاغة والمنطق ، مؤمنين أشد الإيمان بأنهم ليسوا كغيرهم من طلاب الازهر يدرسون ليعلموا ما كان يعلمه الشيخ ، إنما كانوا رسل إصلاح وتجديد ونهضة . وكان من ألد الأشياء وأحبها إلى النفس أن تستمع إليهم وهم يتحدثون بين درس ودرس ، يذكرون ما قال الشيخ وما عمل ، يقلدونه في الصوت وزيارته ، كما كان من ألد الأشياء وأحبها إلى النفس أن تراهم يسرعون إلى الصحف

يقرأون فيها متلهفين ما كان يكتبه خصوم الشيخ ، وما كان يوحى به القصر حينئذ من كيد للشيخ ، وتأليب عليه . وكان من ألد الاشياء وأحبها الى النفس أن تسمعهم وهم يسطون آمالهم العراض اذا انتهوا من الدرس ، وظفروا بالشهادة وارتفعوا الى مناصب التدريس والقضاء . اذن فسيدرسون العلم على وجهه ، وسينفذون في المحاكم الشرعية آراء الشيخ ، وسيمحقون الرشوة محققاً ، وسيلغون تعدد الزوجات ، وسيقيدون الطلاق ، وسيؤيدون آراء قاسم أمين التي رضىها الشيخ . وسيحيون فلسفة ابن سينا وابن رشد ، وبلاغة الجرجاني . وسيقضون على هذه الكتب السقيمة التي قضت على عقل الازهر والازهرين . وكان من ألد الاشياء وأحبها الى النفس أن تستمع اليهم وهم يقلدون شيوخ الازهر عابثين بهم ساخرين منهم ، هذا يتشدد كما يتشدد الشيخ فلان ، فيفخم القاف ، ويغلا فمه بالراء ، في عبارات كلها جهل وغفلة مضحكان ، وهذا يتغنى ويترنم في القراءة والتحقيق ، وهذا يكثر من قال وقيل وبقي ، وهذا يستعمل ألفاظ الرقيقين ، وهذا يسفه ويشتم . وعلى هذا النحو كان يمر جلة شيوخ الازهرين هؤلاء الطلبة العصاة ، فلا يخلصون منهم الا وقد أصابهم من ضروب التشويه والتمثيل شيء كثير . كانوا كذلك وكانوا لا يفكرون عن درس هذا العلم الأزهرى القديم ليصلوا الى الشهادة ، وكانوا يرون هذا العلم شراً لا بد منه . وكانوا يرددون هذه الجملة : الضرورات تبیح المحظورات . ثم أبعد شيخهم من الازهر ، فلم يزد هم

ذلك الا حقداً على الازهر والازهرين ، واقتناً بالشيخ
وتهاكاً عليه ، يزورونه في عين شمس ، ويزورونه في بيت
الافتاء . ثم مرض الشيخ ثم مات . ولا تسل عن القلوب المفطورة
والنفوس المحزونة ، والدموع المنهمرة ، والزفرات المتصاعدة
والعهود يقطعونها على أنفسهم ليُحيين سنة الشيخ ، وليحققن
ما كان يريد من اصلاح . ثم أتىح لهم أن يظفروا بشهادة
العالمية . ثم اندفعوا في الحياة العاملة ، فمنهم الاستاذ ، ومنهم
القاضي . ولست أريد أن أسألم عما أحيوا من سنة الشيخ ،
ولا عما حققوا من ضروب الاصلاح ، ولكني ألاحظ أن الحياة
العاملة قد غمرتهم وأهتتهم عن الشيخ وسنته وإصلاحه ، فما
يزالون يذكرونه بالخبر - إن ذكروه - فأما اذا جدد الحد
فأنت تعلم كما أعلم أن بلاءهم في الاصلاح والتجديد قليل .
ولقد أذكر فيما أذكر - وأراني أضحك وحدي حين أذكر
ذلك - أن جماعة من هؤلاء التلاميذ المحبين للشيخ اتفقوا
ذات يوم على أن يسيروا سيرة الشيخ ، فيدرسوا لغة أجنبية
كما كان الشيخ يتكلم الفرنسية ويفهمها . جلسوا يتحاورون
فأجمعوا على أن في درس اللغة الاجنبية فائدة لا تعدلها فائدة ،
لأن ذلك يمكن من معرفة ما يكتبه خصوم الاسلام والرد عليه .
أليس الشيخ قد رد على هانوتو ورينان لأنه كان يعرف لغتهما ؟
نعم ، لا بد من درس اللغات الأجنبية ، ومن السفر الى أوروبا ،
ومن تعرف الداء في موضعه لحسمه والقضاء عليه . ولكن أي
اللغات يجب أن تدرس ؟ قال قائل : الفرنسية التي درسها

الشيخ . وقال قائل آخر : الانجليزية لأنها لغة الحكام ولغة المدارس .
ولا بد من أن نعرف هذه اللغة لتكون كهؤلاء الشبان الذين يخرجون
من المدارس فيتيهون علينا بهذه الرطانة التي لا نحسنها . وما أيسر
أن نلوي ألسنتنا وأفواهنا ، ونخرج هذه الاصوات التي يسمونها
لغة إنجليزية .

واتفقوا فيما بينهم . وأرسلوا واحداً منهم إلى مدرسة
الجمالية ، فاتفق لهم مع شاب من المعلمين في هذه المدرسة على
أن يلقنهم الانجليزية أربع ساعات في الأسبوع ، وينقدوه جنيهاً
آخر الشهر ، وكانوا أربعة . وتستطيع أن تصدقي حين أقول
لك إنهم كانوا يشقون على أنفسهم حين يدفع كل منهم نصيبه
من هذا الجنيه .

وجاء الشاب ونصب على الحائط لوحته السوداء ، واستطاع
أن يعلمهم حروف الهجاء ، ثم أخذ يعلمهم كيف يلوون
الألسنة ، ويمدون الشفاه ، ويوسعون الحلق ، ويباعلون بين
الألسنة وسقف الفم ، لينطقوا بهذه الرطانة الإنجليزية : ولقد
تعب الشاب ، وتعبت الجماعة ، ولكنهم لم يصلوا إلى طائل
وكننت أنا حينئذ في زاوية من زوايا الغرفة أجلس القرفصاء ،
وقد انعطفت اعلاي على أسفلي ، فكأنني كرة ، وأشهد أنني
انقضت بهذه الدروس فأعانتني بعد ذلك بسنين طوال حين أردت
أن أتعلم الانجليزية . لا أعرف هذا الشاب المعلم ولا أذكر اسمه ،
ولكنني مدين له ، لأنه علمني كيف ألوي اللسان ، وأمدت
الشفتين ، وأخرج هذه الرطانة الإنجليزية .

واجتمع اصحابنا ذات يوم إلا واحداً منهم ، واذا هم
في ثورة واضطراب ، يضحكون ويغرقون في الضحك ،
ويتهايمسون فيما بينهم بحديث لم أكن أتبينه ، ثم يضحكون
ويغرقون في الضحك - والاطفال مكررة مسرفون في المكر -
فقد أحسست حينئذ أن بين القوم سرّاً يلهمهم ويضحكهم ،
ولكنهم لا يستطيعون أن يجهروا به لمكاني منهم . وما هي إلا
أن أحتال حتى أنسل من الغرفة التي كانوا فيها إلى دهليز ضيق
كان أمامها فيه جرة الماء من ناحية ، وفيه من ناحية أخرى
صندوق من الخشب طويل عريض ، كان يحوي كتب أخي ؛
وإلى جانب هذا الصندوق صندوق آخر أعرض منه وأعظم
وأقصر ، كان فيه ما شاء الله من خبز وعسل وسمن ومتاع ،
فأنسل أنا من تلك الغرفة إلى الدهليز وآوي إلى الزاوية بسين
للصندوقين فأجلس القرفصاء مسنداً ظهري إلى الحائط ،
معتمداً بشمالي على صندوق الكتب وبمخبي على صندوق الخبز .
كم ضحككت في هذه الجلسة الغريبة حين أحس الجماعة
أنهم أحرار ، وخيل إليهم أنني تركت البيت ، وجلست كما
كنت أتعود أن أجلس أمامه في هذه الطريق الضيقة التي كانت
تمتد وما تزال تمتد فيما أظن بين البيوت في ربيع السلحدار .
عرفت في هذه الجلسة ما كان يضحك القوم ، ذلك أن
صاحبهم الذي كان غائباً قرأ من أيام فصلاً للشيخ أو لغير
الشيخ في إحدى المجلات ، فتأثر بما قرأ ، وعاهد نفسه على
حماية الدين وتطهير المسلمين من البدع والفساد ، وكتب على

ورقة الصقها بالخائط أمامه هذه الحملة : حررت نفسي
لخدمة الدين .

ثم فكر في أول عمل يأتيه لخدمة هذا الدين ، فخطر لسه
أن يذهب إلى حيث الفساد أشد انتشاراً ، وإلى حيث الإثم أبعد
في النفوس أثراً ، فيحارب الرذيلة في موطنها ، ولكنه لم يجرأ
أن يتحدث بعزمه هذا إلى أصدقائه وزملائه ، فجمع إليه نفراً
من الطلاب المحدثين من بلده فيهم سداجة وقلوب طيبة ،
وفيهم ابن عم له ضئيل البصر جداً ، وعرض عليهم رأيه هذا
فأقروه وانتدبوا لمعونته . فلما أشرف الليل أو كاد ، خرج خمسة
للقوم من حوش «عطي» ، ومضوا حتى وصلوا إلى حيث دور
الفسق والدعارة يريدون الوعظ والارشاد . فلم تكد تراهيم
المومسات حتى هممن بهم متضاحكات يدعون ويغرين . وهم
أصحابنا أن يعظوا ويرشدوا ، فانعقدت الالسة ونضب الريق
وجفت الحلق . واستمر أولئك النساء يعثن ، وما هي إلا أن
أحسن الوعاظ أنهم في خطر ، فاذا هم يهرولون ، ومنهم من
يتعثر في جيبته ، ومنهم من يتعثر في عباءته ، والنساء من خلفهم
يدعون ويغرين ويتضاحكن ، حتى انتهوا إلى درج في أقصى
الشارع تدافعوا إليه ، فترل أقدامهم فيتساقطون ، وقد فقد هذا
عباءته ، وطاحت عن رأسه عباءته ، وعادوا مع العشاء إلى
بيوتهم . وإن قلوبهم لتجف هلعاً ، وإن وجوههم لمتمقعة
أشد الامتقاع .

وعرف الجماعة يومئذ أن ليس من اليسير اجتثاث الرذيلة

من أصلها ولا محاربة الشرح حيث ينبت. وزالت عن حائط صاحبنا هذه الورقة التي كانت تذكره بأنه قد رصد نفسه لخدمة الدين .

وطائفة أخرى من الخواطر - لا أكاد أحصيها - كانت تضطرب في نفسي على ظهر السفينة ، والقوم من حولي في جدهم ولعبهم ، ولكنني لا أستطيع ولا أريد أن أسطر من هذه الخواطر شيئاً الآن ، وإنما كانت تضطرب كل هذه الخواطر في نفسي حول ارتقاء الشيخين إلى منصب الرياسة الدينية العليا ومنصب الافتاء .

هذان تلميذان من أخص تلاميذ الشيخ محمد عبده به ، وأقربهم إليه ، وأشدهم إيماناً بمذهبه ، واقتناعاً بدعوته إلى الإصلاح ، وحرصاً على أن تعود للأسلام - كما كان يريد الشيخ - مكانته العالية ، فيؤثر في نفوس المسلمين ، وتظهر عليه الهيبة والحلال أمام غير المسلمين ، وعلى أن يكون الأزهري - كما كان يريد الشيخ - مهدياً وملجأ ومنبعاً لهذا النور الإسلامي الجديد ، الذي يجب أن يغمر البلاد الإسلامية كلها ، فيجنت منها أصول الشر وينكس فيها أعلام البدع ، ويعيد فيها إلى القلوب ما كان لها أيام السلف من نضرة وطهارة ، ثم يتجاوز هذه البلاد إلى بلاد الديانات الأخرى ، فيدعو إلى دين الله في دعة ولسمين ، واقتناع بالحجة والموعظة الحسنة .

هذان تلميذان من أخص تلاميذ الشيخ به وأقربهم إليه ، قد ارتقى أحدهما إلى حيث لم يستطع الشيخ نفسه أن يرتقي ،

فأصبح شيخ الأزهر ، ورئيس المعاهد الدينية ، وزعيم الهيئة
الحديدة التي يسمونها هيئة كبار العلماء . ووصل أحدهما الآخر
الى حيث كان الشيخ فجلس على كرسيه وتلقب بلقبه وأصبح
مفتياً للديار المصرية ، أو قل مفتياً للبلاد الاسلامية . أفترأها
يذكران الآن ما كان عملاً نفسيهما حين كانا مختلفان في الأزهر
الى دروس الشيخ ؟ أفترأها يجدان فيما كان الشيخ يريد أن
يجد فيه ، من احياء الاسلام على وجهه حراً سمحاً طلقاً ،
صديقاً للحياة والحضارة والعلم والادب ، عدواً للجمود والتقليد
والكيد والفناء في المستبدين وتأيد سلطتهم المطلقة ؟ .

نعم لأول مرة منذ مات الشيخ وصل تلاميذه الى حيث
السلطان والقدرة على العمل والنفع . أفترى هؤلاء التلاميذ لا
يزالون تلاميذ الشيخ يذكرونه ويتأثرونه ، أم هي الحياة
للعملية وما يحيط بها من ظروف مختلفة قد تضطرننا الى أن نقنع
مرة أخرى بأن الشيخ قد مات ؟ ومع ذلك فلم يحتاج الإسلام
في يوم من الأيام الى أن يفيق المسلمون فيحيطوه ، ويلودوا
عنه كما هو محتاج الى ذلك في هذه الأيام

كم احب ان يقرأ الشيخان بعض ما نقرأ ، وان يريا بعض ما
نرى ، وان يقدرا نشاط رجال الديانات الاخرى في انواع
العلم على اختلافها ، وضروب الادب على تنوعها ، وصنوف
الفن على تباينها ، حتى لقد زاحموا العلماء والادباء والفنيين :
ولست اغلو ان قلت ان منهم من بدأ هؤلاء وتفوق عليهم .
لن يكون اصلاح الأزهر حقيقة واقعة مثمرة الا اذا قام

الاصلاح على هذه القاعدة التي لا قوام للاصلاح بدونها ، وهي
ان الدين لا ينبغي ان يحول بين اهله وبين ضروب النشاط المختلفة
للعقل والشعور والجسم ، بل لن يستطيع الدين ان يحيا آمناً الا اذا
أباح لاهله ان يأخذوا بحظوظهم من هذا النشاط على اختلافه
وتنوعه .

هل يقدر الشيخان ما يطلب اليهما من عمل ؟ بل هل كان الشيخ
محمد عبده نفسه يقدر مهمته ؟

هل يعلم الشيخان ان مهمة الشيخ كانت يسيرة جداً بالقياس
الى عصره ، على حين أصبحت مهمتها شاقة شديدة العسر ؛ لان
ظروف الحياة العامة في مصر وفي البلاد الاسلامية قد تغيرت أشد
التغير في هذه الاعوام الاخيرة ، حين اشتد الاتصال بين الشرق
والغرب ، وأخذ سلطان الحضارة الغربية والتفكير الغربي يستأثر
بعقول المسلمين .

٧

أكانت باريس التي رأيتها هذا العام كباريس التي رأيتها
منذ عامين ؟

أما الدور والشوارع والعمارات والملاعب والمعاهد فهي هي ،
لم تتغير أو لم تكد تتغير . ولكن الذين عرفتهم وتعودت ان أراهم
أو اسمع الحديث عنهم في هذه الناحية الصغيرة من الحي اللاتيني
قد مضى أكثرهم ، ولم يكذبني منهم احد ؛ ومنهم من كان
إنما استوطن باريس ليتجر فيها طلباً للثروة والسعة ، فلما ظفر
منها بحظه ترك باريس الى حيث يصبح من أغنياء الاقاليم ، أو
من اهل الدعة والمكانة .

وكذلك لم ألق البوابة التي كنت اعرفها في البيت أيام الطلب ،
والتي كنت احب ان اسمع اليها تصف علمها ودرايتها وحسها
وشعورها ، بينما تكنس السلام أو تمسحها .

ولم الت البوابة الاخرى التي خلفت هذه والتي كانت على حظ
عظيم من المرح والنشاط ، تشرب ما استطاعت ، وترقص ما
استطاعت ، وتداعب من المختلفين الى البيت من تجد الى مداعبته
شيئاً من الراحة .

فوجدت مكان هذه وتلك بوابة اخرى جديدة ، تسلط على
السكان وتحكم فيهم بأمرها ، مستبدة مسرفة في الاستبداد ،
فارضة عليهم ما تشاء من العقوبات اذا قصروا في ذاتها بعض
التقصير . أليس بيدها يريد البيت ، تستطيع أن تؤخره وأن تحبس
وأن تضيقه ؟ أليس اليها يتجه الزائرون قبل أن يصعدوا الى طبقة
من طبقات البيت ؛ فهي تستطيع ان تجيهم بما شاءت من جواب ؛
بأنك في البيت أو بأنك قد خرجت . أليس اليها تتجه السلطة
حين تريد ان تعرف من امر السكان ما تحتاج اليه لفرض الضرائب ؟
فهي تستطيع ان تصورك غنياً وفقيراً ومتوسط الحال . ولا بد
لك اذا كنت تريد الحياة الهادئة من ان ترشوها وتملقها وتتوسل
اليها بمختلف الوسائل ، فإن لم تفعل فحياتك منغصة من
غير شك .

نعم ، وقد افترقت بائع الخضر الذي كان يحب المزاح ،
والذي كان يحمل أمتعتي كلما سافرت من باريس أو عدت اليها ،
وافترقت بائعة اللبن التي كانت سيئة الخلق ؛ تخيف المختلفين
اليها ، وتملأهم رغباً وفزعاً .

وانا اسأل عن الظاعن وعن المقيم ، وأجد في السؤال والجواب
لذة وذكرى يملؤها الحنان .

ولكن ليس هذا كل ما طرأ على باريس او على حيي في باريس من صنوف التغيير ؛ فقد حدث في هذا الحي كما حدث في غيره من احياء باريس شيء جديد لم اكن اعرفه ، وقد احتجت الى زمن طويل لأتعوده ، وتركت باريس ولما نظمته نفسي اليه فوجدته في غير باريس وكأن الله قضى بان اجده امامي حيثما توجهت في فرنسا فأضيق به ، وأحتمله على كره . وهو مستقر متسلط في هذه الطبقة السادسة من هذا البيت الهادئ في هذه الغرفة الضيقة المسرفة في الضيق التي طالما قضيت فيها الساعات الطوال الى كتاب من كتب الفلسفة او التاريخ هادئاً مطمئناً . لا اكاد اسمع الى ضوضاء السيارات ثقيلها وخفيفها . وهو مستقر متسلط في مدخل هذا الفندق الذي عرفته منذ عامين صامتاً شديد الصمت ، ساكناً مغرقاً في السكون . وهو مستقر متسلط في حوانيت الباعة على اختلافها . ماذا اقول ؟ بل مستقر متسلط في المحطات ، حيث تعودنا الا نسمع الا صفير القطار وضجيجها ، وصياح العمال وحملة الامتعة وذلك هو الراديو... قد انتشر في باريس وانتشر في فرنسا بل في أوروبا انتشاراً مخيفاً ، كما تنتشر الامراض المعدية ، او كما تنتشر الصحف التي تنشر الاخبار والقصص السهل وتباع بشمن زهيد .

نجدته في غرفة البوابة ، ونجدته في كل طبقة من طبقات البيوت ، ولا تكاد تخطو في باريس الهادئة المطمئنة خطوة دون ان تسمع هذا الصوت الذي لا هو بصوت الرجال ولا بصوت النساء ، وانما هو شيء بين بين ، يخرج من الانف متغنياً متحدثاً ،

مثلاً خطيباً ، معلناً مفتناً فيما شاء الله من فتون الجدد واللاهوت ، التي تعودتها الجماعات في البلاد المتحضرة . وقد نظم امر الراديو ، كما نظمت الصحف تنظيماً ديمقراطياً دقيقاً ، ملاكته السرعة والكثرة والرخيص . فقد مضى ذلك العصر الذي كان الجمال الفني فيه مقصوراً على الاغنياء واصحاب اليسار ، واصبح من حق الناس جميعاً ان يتعلموا ويقرأوا ، ويشهدوا التمثيل ، ويسمعوا الموسيقى ، ويعرفوا اخبار الارض كلها ، واخبار السماء ان كانت للسماء اخبار . ولا قيمة للديموقراطية اذا لم تسوّ بين الاغنياء والفقراء في الاستمتاع بهذه الجذوة من لذات الحياة وآلامها .

والديموقراطية جادة في اداء واجبها ؛ فهي تمحو الفروق بين الطبقات ، وتجعل الناس سواسية ما استطاعت الى ذلك سبيلاً ، كل الناس يستطيع الآن ان يقرأ الصحف ، والصحف تنافس اشد التنافس في ان تحمل الى الناس جميعاً من الاخبار والآثار الأدبية والعلمية والاقتصادية والتجارية أضخم مقدار وأيسره هضماً . ولكن القراءة تحتاج الى وقت ، وهي تصرف القارئ عن كثير من الاعمال . وهناك اشياء لا يمكن ان يقرأها الناس جميعاً واشياء لا يمكن ان يسمعها الناس جميعاً ، واشياء لا يمكن ان يشهدوها الناس جميعاً ؛ ومن الحق على الديمقراطية ان تقرب هذه الاشياء كلها الى الناس جميعاً . وقد وفقت الديمقراطية بفضل العلم الى هذا التقريب ، فاصبح اشد الناس فقراً في فرنسا يستطيع — في غير مشقة ولا جهد ، ولا انصراف عن العمل —

ان يأخذ بحظه من كل اللذات التي يمكن ان تصل الى النفس من طريق السمع . يكفي ان تشترك في الراديو - وليس الاشتراك فيه شاقاً ولا كثير النفقة - فتقرأ عليه الصحف مرات في كل يوم : واذا ذكرت الصحف فاننا استعمل الكلمة في معناها الدقيق . فتصور صحيفة من الصحف وما فيها من المواد : من الاخبار والمقالات الادبية والعلمية والقصص ، وأنباء السوق والبورصة ، واخبار البلاد الاجنبية ، وكل ما يمكن ان تشتمل عليه صحيفة خليقة بهذا الاسم : واعلم ان هذا كله يتلى على المشترك في الراديو مرة على الاقل في كل يوم .

ثم ليس الامر مقصوراً على هذا ، وانما يحمل الراديو الى المشتركين فيه ما يكون في الملاعب ودور الموسيقى واللاهو من تمثيل وعزف وغناء ومرح . ذلك كله دون ان يتكلف المشترك من المشقة الا ادارة زر من ازرار الكهرباء ، فاذا سئم او مل اذار الزر مرة اخرى فيقطع الصوت ويعود الهدوء . قد أثر هذا في الطبقات الفقيرة التي كان من العسير عليها جداً ان تختلف الى الملاعب ودور اللاهو ، والى المحاضرات ومعاهد العلم ، او ان تجد من الوقت ما يمكنها من القراءة والاخذ بحظ من الثقافة العامة : قد أثر هذا في التقريب بين الطبقات من ناحية ، وفي نشر الثقافة والغناء المسافات بين الامم من ناحية اخرى ، فتستطيع ان تفهم أمر هذه الخادم التي اخبرني بانها اذا كان الليل آوت الى سريرها واشعلت سيجارتها ، واستلقت تدخن وتسمع لهذا الراديو ، وهي تستفيد من هذا كله ، وتستطيع ان تحدثك الآن عن

الكتاب والشعراء والعلماء والموسيقين . وهي تعتقد أن ليس بينها وبين غيرها فرق في تصور الأشياء والحكم عليها . أما ان هذه الاداة الجديدة من أقوى أعوان الديمقراطية على نشر الثقافة والمساواة فشيء لا شك فيه . ولكن من يدري ؟ لعل هذه الاداة الجديدة من أشد الأشياء خطراً على الديمقراطية نفسها ... فهي تنشر المساواة والثقافة بغير حساب وفي غير تقدير . وهي لا تدري أين تلقي ما تلقي من البذور ، وهي لا تعلم مقدار استعداد المستمعين لها لإساعة ما تنقل اليهم من المواد ، وهي توشك بإسرافها في نشر المساواة أن تكون أداة للشوعية ، وتوشك بإسرافها في نشر الثقافة أن تكون أداة للغرور .

وكذلك تخلق الديمقراطية والعلم من الأشياء والادوات ما هو عدو للديموقراطية والعلم .

ولكن لهذه الاداة الجديدة نواحي لا تخلو من فكاها وجد ؛ فتصور خطيباً من الخطباء ، أو ممثلاً من الممثلين ، أو استاذاً من الاساتذة يتحدث أو يخطب أو يمثل ، وهذه الاداة تنقل عنه ما يقول الى أطراف من الارض يجهلها هو ، ويجهلها غيره من الناس ، وتصور موقع خطبته أو درسه أو تمثيله في نفوس الذين يستمعون له وهم بين معجب وساخط ومزدر . أما أنا فأتمنى لو وفق العلم الى أن يرد الى الخطيب والاستاذ والممثل الآثار المختلفة التي يحدثها في نفوس المستمعين اليه . إذن لأحجم كثير من الخطباء والممثلين عن التحدث الى هذه الاداة . وماذا عسى كان يقول المرشال فوش ، أو وزير الحربية الفرنسية ، لو ردت اليها هذه الاداة

يوم كانا يخطبان في حفلة من حفلات مدرسة الهندسة ما كان يقول
ابناني وهما يستمعان لهما ، وما كانا يتبادلان من رأي في أصواتهما
وأنغامهما ، وما كان يطلبان اليهما من صمت سريع .

بل ماذا عسى كان يقول هذان الخطيبان لو ردت اليهما هذه
الاداة ما كان يلقيانها به الاشتر اكيون والشيوعيون من ألوان السخط
والنقمة والوعيد ؟

على أن لهذه الاداة بداً عندي ! فكثيراً ما استمعت لصحيفتها
التي كانت تتلوها في المساء ، وكثيراً ما نقلت اليّ من أخبار
مصر ما لم أكن أنتظر أن اظفر به الا بعد أيام حين تصل لايّ
الصحف المصرية .

٨

اريد الليلة أن أضحك ، وأن أضحك في انتفاع واستفادة .
لما هي إلا أن أقصد الى احد الملاعب ، أو الى احد هذه الملاهي
التي لا توجد إلا في فرنسا ، بل لا توجد إلا في باريس ، واذا
أنا أمام طائفة من الاغاني الهجائية فيها الذم ما يسمع ويضحك ،
ويدعو الى التفكير والعبرة والعظة .

بالقرب من السوربون يقوم ملهى يسمى *Les Noctambules*
لا يستطيع ان أذهب الى باريس دون أن أزوره ، وقد زرته هذه
السنة ، فها أقل فلن أستطيع أن أصف لك ما وجدت فيه من
لذة مضحكة باعثة على التفكير . ليس في هذا الملهى شيء
غريب . وإنما هم جماعة من المغنين الهازلين يتعاقبون أمامك ،
يسمرك كل منهم طائفة من الأغاني لا يجد فيها ، أو قل كلها
جد ، ولكنها صيغت في صيغة الهزل . وقد أرادت المصادفة أن
أصل إلى باريس هذه السنة بعد انتهاء الانتخابات البرلمانية ، وأن

تكون الاغاني التي تسمع في هذا الملهى كلها متصلة بالحياة الفرنسية السياسية. فلو قد سمعت هذا العبث الذي لاحد له برئيس الجمهورية ، ورئيس الوزارة ، والوزراء والنواب والشيوخ ، والبرامج السياسية لأولئك وهؤلاء والجمهورية نفسها ، ونظم الحكم الاخرى — لسألت نفسك الى أي حد من القوضى يريد ان يصل الفرنسيون : ذلك أنهم لا يحفلون بشيء ، ولا يقدرّون شيئاً ، ولا يرعون لنظام ولا قانون حرمة ولا ذمة ، وإنما يعرضون عليك كل شيء عارياً مجرداً ، يظهرون لك منه أقبح ما يمكن ان يظهر ، لا يكرهون أن يتناولوا حياة رئيس الجمهورية الخاصة بأقبح ما يمكن ان يتناول به من ألفاظ التشنيع . فأما رئيس الوزارة القائمة بوانكاريه فالفرنسيون يحبونه ، ولكن ذلك لا يعفيه من أن يعرض عليك في اقبح صورة ، وافظع شكل . واذا المغنون يعبثون به خطيباً ، ويعبثون به وزيراً ، ويعبثون به منقداً للمالية الفرنسية ، ثم يتناولون معدته وامعاءه وكبدته وكلاهما . وقل مثل ذلك في وزراء فرنسا وزعمائها . فاذا فرغ المغنون من السياسة والساسة التفتوا الى العلم والعلماء ، وكم تلقى السوربون ورجاله من سخريه هؤلاء الساخرين ! وأغرب ما في الامر أن كثيراً جداً من هذه الاغاني الهجائية يخرج من السوربون نفسها ، ينشئ بعضها الطلاب ، ولعل من الاساتذة من لا يتخرج عن انشاء بعضها الآخر .

وفي باريس ملعب Palais Royal لا يعرف باريس من لا يعرفه ، ولا يزور باريس من لا يزوره ، ولا يصل الى حقيقة النفس الفرنسية من لم يختاف اليه ، ويتلوق ما يلعب فيه . وكيف تفهم أثينا من غير ارستوفان ؟ .

اذن فلعب Palais Royal من باريس هو كملعب ارستوفان من اثينا في القرن الخامس قبل المسيح . في هذا الملعب الباريسي الصغير تظهر من النفس الفرنسية ناحيتان مختلفتان : احدهما حلوة جداً ، والاخرى مرة جداً ، وكلتاهما مضحكة تحمل على الإغراق في الضحك . وانا زعيم لك — اذا شهدت ما يلعب في هذا الملعب وفهمته على وجهه — ان تضحك كما لم تتعود ان تضحك قط ؛ وان تضحك بعد فراق الملعب بيوم وايام ، وان تضحك كلما ذكرت هذه القصة التي شهدت . واني لأذكر الآن قصصاً شهدت منذ عشر سنين ، فلا استطع ان ادفع الضحك عن شفتي .

في هذا الملعب الصغير تعرض عليك الحياة الفرنسية كلها :
أدبها ، وسياستها ، وعلمها ، وتجارتها ، وزراعتها ، وطبقات
الشعب المختلفة فيها . على الا يظهر الممثلون من هذا كله الا ما
هو خليق بالنقد ، حري ان يبعث الاستهزاء والسخرية . شهدت
فيه هذا العام قصتين فلن انسى ثانيتهما التي كان موضوعها الوزراء
الفرنسيون في حياتهم الخاصة بين ازواجهم وخليلاتهم . ومهما
أنس فلن انسى أحد هؤلاء الوزراء وقد كلف بفتاة كانت تعمل
في مكتبه ، وما يزال بها حتى ترتفع بينهما الكلفة ، واذا هو قد
نسي نفسه ومكانته ومنصبه وامرأته وكل شيء ، واصبح رجلا
من عامة الشعب امام امرأة من عامة الشعب ، واذا هو مستلق
على الارض يعبث بيديه ورجليه ، ويمتلئ فقه بالضحك وأشنع
ألفاظ المزاح . ويدخل رئيس الوزراء فبري زميله في هذه الحالة
فهو دهش مبهوت ، ولكنه لا يكاد يخلو الى هذه المرأة حتى
يكلف بها ، واذا هو يكيد لزميله ، واذا هو يتملقها ويتقرب
اليها ، واذا الكلفة قد ارتفعت بينهما ، واذا انت تسمع من
الرئيس مثل ما كنت تسمع من صاحبه ، ولكنك تضحك من
الرئيس اكثر مما كنت تضحك من صاحبه ؛ لان هذا الرئيس قد
اتخذ في شكله وحديثه وحركاته ما يذكر او يفرض عليك ان
تري وزيراً من وزراء فرنسا القائمين ، كان رئيس وزارة فيها
عشر مرات ، وبلغ الضحك اقصاه حين تسمع هذا الرئيس
يسمى نفسه ارستيد Aristide

على انلهزل في ملاهي باريس وملاعبها الوائاً مختلفة وفنوناً

معبانة . فأنت تشهد في بعض الملاعب هذا الهزل المريح الذي يقصده به الى الضحك ليس غير ، لا يدعوك الى تأمل ، ولا يضطرك الى تفكير ، ولا يخيل اليك انه يمثل الحياة أو ناحية من الحياة ، وانما انت مقتنع منذ ترى اول التمثيل انك امام هزل خالص لا اكثر ولا اقل .

هذه القصة التي شهدتها تمثل الموتى في الدار الآخرة وهم يعبثون في الجنة ضروباً من العبث تشبه عبثهم في الدنيا ، ومنهم من يحتال على بواب الجنة حتى يظفر بالاذن في ان يهبط الى الأرض اول النهار على ان يعود الى الجنة منتصف الليل ، فإذا هبط الى الأرض رأى امرأته وقد كادت تفنّ برجل من الاحياء فما يزال بها وهو ممتكر حتى يصيبها ويصرفها عن خصمه ، حتى اذا كانت ساعة الصعود الى الجنة أبت صاحبته الا ان تصعد معه ، وخيل اليها انه صاحب طيارة ، فتطير معه واذا هي في الجنة . ثم تنتهي القصة واذا كل ما فيها حلم حلمه رجل بعد أكلة دسمة ، وشراب كثير .

فان اردت الجد فما اكثر ملاعب الجد ، وما اكثر ما يعرض فيها من الفنون ، منها القديم ومنها الجديد ، منها الهادى ومنها العنيف ، منها ما يقصد الى التسلية والعظة ، ومنها ما يقصد الى الدرس والبحث . ومثل ذلك في الموسيقى الجادة والموسيقى التي تتوسط بين هذا وذاك . ولديك الموسيقى الخالصة لا تسمع فيها الا الادوات الموسيقية يصحبها الغناء ، والموسيقى يصحبها الرقص والغناء جميعاً .

ولديك في باريس فنون أخرى تلهيك عن نفسك ان كنت
لا تريد ان تعود اليها . وانت تستطيع ان تأخذ بحظك من هذه
الفنون في اي ساعة شئت من ساعات الليل ، وفي اي ساعة
شئت من ساعات النهار ، وفي اي فصل شئت من فصول السنة.
ثم يزعم بعض الناس على ذلك ان باريس ليست مدينة فرحة
مبهجة ، ولست ادري اذا لم يكن الفرح والابتهاج في باريس
فأين يكونان ؟

كلا ! في باريس الفرح والابتهاج ، وفيها البؤس والحزن ،
وفيها الرجاء والامل ، وفيها اليأس والقنوط ، فيها اجتمع كل
ما يحتاج اليه الناس وكل ما لا يحتاجون اليه . فيها اجتمع كل
ما يشخص الحضارة الانسانية في هذا العصر الذي نعيش فيه .

ولذہ اخرى اجدها حين ازور فرنسا . ولعلی استطیع أن
اجدها في أي بلد آخر ، ولكنها في فرنسا قوية اشد القوة متنوعة
اشد التنوع خصبة اشد الخصب . هذه هي اللذة التي تجدها
حين تزور الآثار والمعالم التي تحدثك عن الماضي القريب أو
البعيد .

ليس في الارض بلد متحضر الا وله قدیمه وحديثه وآثاره
ومعامله ، ولكن للآثار الفرنسية والقديم الفرنسي فضلا على غيرها
من الآثار ؛ فهي سهلة يسيرة يمكن ان يفهمها الناس جميعاً ،
وان يجدوا في فهمها لذة وعظمة وعلماً ، على اختلاف حظوظهم
من الثقافة ، وعلى اختلاف اوطانهم وبيئاتهم . ليس كل الناس
يستطيع ان يسعد ويلذ بزيارة الآثار اليونانية والرومانية والمصرية
والاشورية والبابلية ؛ بل لا بد لتحقيق اللذة والسعادة بزيارة
هذه الآثار من حد ادنى من الثقافة والعلم . واني لأعرف علماء
وقفوا امام الاهرام وامام معابد الكرنك دون ان يحسوا شيئاً ؛

والني لأعرف مثقفين يمرون بأثينا وروما فلا نحبي في نفوسهم
هاتان المدينتان شيئاً ، ولا تبعث فيها خاطراً ، ولا تثير فيها
عاطفة .

فاذا زرت الآثار الانجليزية والالمانية فأنت مغتبط بهذه الزيارة ؛
لأنك رأيت شيئاً يجب ان تراه ويحسن ان تراه . فأما هذه اللذة
الخاصة التي تحدثها في النفس زيارة الآثار عند فهم هذه الآثار
- فلن تجدها امام الآثار الانجليزية والالمانية الا اذا كنت على
حظ من الثقافة ، وبذلت مقداراً من الجهد . اما الآثار الفرنسية
فأيسر من ذلك وادنى الى النفس والى الحس معاً . لا بد لك من
ثقافة ولا بد لك من جهد يختلف قوة وضعفاً اذا اردت ان تفهم
الآثار الفرنسية على وجهها كما يحب العلماء ان يفهموا الآثار .
ولكنك مرغم على ان تجد شيئاً من اللذة والسعادة وان لم تكن
مثقفاً ، وان لم تكن حريصاً على الفهم والتعمق في العلم حين تزور
الآثار الفرنسية ؛ لأن هذه الآثار تعرف كيف تتحدث اليك ،
وكيف تسترعيك وتلفتك اليها .

تستطيع ان تزور قصر فرساي ، فلا شك في ان لذتك لا
تعدها لذة اذا كنت تعرف تاريخ فرنسا السياسي والفني والادبي
حين تزور هذا القصر ، وترى ما يمثل من هذا كله . ولكن
هبك لا تعرف من هذا التاريخ شيئاً ، فانت واجد على كل حال
لذة قوية في قصر فرساي ؛ ذلك لان هذا القصر وما فيه يلفتانك
بهذه المظاهر الجميلة التي لا يستطيع الحس ان يمر بها دون ان

يقف عندها ، و يمنحها حظاً قليلاً او كثيراً من الاعجاب . فاذا سمعت هذه الاحاديث التي يلقيها عليك الأدلاء في غير عناية ولا تحقيق ، وكنت تفهم الفرنسية بعض الفهم ، فستحسني في نفسك هذه الاحاديث عواطف وضروباً من الشعور لها في نفسك أثر بعيد . في هذه الغرفة كان لويس الرابع عشر يفعل كذا وكذا ، وفي هذه الغرفة كان لويس الخامس عشر يلقي فلاناً وفلاناً او قل فلانة وفلانة ، وفي هذه الغرفة كانت فلانة من خليلات هذا الملك او ذاك تفرغ لزيتها ، وفي هذه الغرفة اتخذ هذا الملك او ذاك من القرارات ما كان له في حياة الفرنسيين ثم في الحياة الاوروبية ثم في الحياة العالمية أبعد الآثار واقواها .

ولم أصف لك ولن استطيع ان اصف لك مظاهر الفخامة والترف والابهة في العصور الفرنسية الحديثة ، فقد اجتمع من هذه المظاهر المختلفة في هذا القصر ما وضعت فيه الكتب الطوال والاسفار التي لا تحصى .

وكنّا في هذا القصر مع طائفة مختلفة من الناس تمثل طبقات متباينة ، وحظوظاً من الثقافة متفاوتة ، ولكنا كنا جميعاً نشترك في مقدار من اللذة والرضا ، ثم نتفاوت بعد ذلك في طبيعة هذه اللذة وهذا الرضا . وكان معي ابناي وهما طفلان . واستطيع ان اؤكد ان رضاهما وابتهاجهما لم يكونا اقل من رضاي وابتهاجي ، ولعلهما كانا اشد وأحد . ذلك في القصر . فاما الحديقة وطرقها ونمايلها واحواضها فحدث عما تبعث في النفس من لذة ، ولا

تخشى ان تتهم بغلو أو باسراف . وليس قصر فرساي بالقصر الوحيد في فرنسا ، ولكنه قصر من قصور وأثر من آثار ، فكل ما قلته واكثر مما قلته يمكن ان يقال في قصر فونتنيلو أو في قصور اللورا او في قصر كومبيين او غيرها من هذه القصور المنبثة في اقطار فرنسا ، والتي تمثل حياة هذه البلاد في القرون الوسطى وفي العصر الحديث اصدق تمثيل واقواء .

لم كانت هذه الآثار انطق وافصح من غيرها من الآثار القديمة والحديثة ؟ لانها فيما اظن تمثل حياة شعب مهما يوصف به من ضروب العيوب والقصور فلن ينكر عليه انه شعب سهل صريح قريب الى غيره من الشعوب ، لا غموض فيه ولا عسر ولا التواء ، تستطيع ان تقرأ التاريخ الفرنسي والادب الفرنسي والفلسفة الفرنسية والعلم الفرنسي وان تنظر في الفن الفرنسي على اختلافه ، فسترى في هذا كله خصلة مشتركة تميزه من غيره عند الأسمم الاخرى وهي الوضوح والجللاء . لا يخطيء الفرنسيون حين يتحدثون عن انفسهم في شيء من الفخر والاعجاب فيقولون أنهم يقومون من امم هذا العصر الحديث مقام اليونانيين من امم العصر القديم .

ولذة اخرى اجدها حين أزور فرنسا - وهل تنقضي لذاتي حين أزور فرنسا ؟ - هي هذه التي اجدها حين انغمس في الحياة الفرنسية الصرفة بقراءة الصحف والكتب والمجلات . ذلك اني لا افهم زيارة بلد من البلاد الا اذا كانت الغاية من هذه الزيارة قبل كل شيء وبعد كل شيء تعمق هذا البلد ، والاتصال بحياته الحقيقية الداخلية ، والوقوف على اسرار هذه الحياة ، وعلى هذه الامور الخفية التي تبعث الافراد على ان يعملوا ، والجماعات على ان يجاهد بعضها بعضاً ، ويمكر بعضها ببعض ، ويتغلب بعضها على بعض . لغيري من المصريين ان يفتن بالطبيعة وجمالها . ولغيري من الفنانين ان يفتن بالعمارة والتصوير والنحت . ولغيري من المؤرخين ان يفتن بالآثار وما يتصل بها من مصادر التاريخ .

ولست ازعم ان هذه الأشياء لا تعينني ، ولكني ازعم ان

الذي يعني قبل كل شيء حين أزور بلدًا من البلاد إنما هم أهل هذا البلد ، واساليهم في التصوّر والحس والشعور والحياة بوجه عام .

وليس من اليسير على الأجانب اذا وصلوا الى فرنسا ان يتصلوا بالفرنسيين اتصالاً صحيحاً ، وان يروهم كما هم ؛ فالفرنسيون وان رأى الأجانب فيهم غير ذلك — مغلزون دون الغرباء ، لا يظهرون انفسهم للزائرين الا بمقدار ، وهم لا يظهرون من انفسهم للأجانب الا ما يريدون إظهاره ؛ من لطف مبالغ فيه أحياناً ، ودعة وحسن ضيافة تبعثها المنفعة في أكثر الأحيان ، وضروب من اللهو والدعابة والمجون تستهوي كثيراً من الأفتدة الى بلادهم . فأما حياتهم الخالصة فيجب ان نلتمسها نحن وان نتكلف في التماسها شيئاً من العناية غير قليل .

يخطئ الأجني الذي يتصل في الملاعب والحانات ببنات اللهو والمجون حين يظن انه عرف الفرنسيين او عرف المرأة الفرنسية ، وخطؤه اشد واعظم حين يتخذ من هذه المعرفة الضئيلة الكاذبة وسيلة الى الحكم وتقرير النظريات .

إنما يلتمس الفرنسي في غير باريس ؛ في القرى وفي اعماق الريف ، في هذه الحياة المقفلة التي لم يتعود الاجني ان يتورط فيها والتي يظهر فيها الفرنسي كما هو ، جاداً كما تعود ان يجده ، هازلاً كما تعود ان يهزل ، مقتصداً كما تعود ان يقتصد ، ومسرّفاً كما تعود ان يسرف .

وظاهر ان الوصول الى هذه الحياة ليس يسيراً لمن يقضي في

فرنسا اصابع يلتمس فيها اللذة والراحة :

على ان هناك سبيلا اخرى للوصول الى ناحية من الحياة الفرنسية لا يسلكها المصريون اذا ذهبوا الى فرنسا عادة ، وهي الامعان في قراءة الصحف الفرنسية والكتب الفرنسية والامعان في تفهمها وتعرف حقيقتها . اما انا فأجد في هذه القراءة لذة لا تعدلها لذة ، ومع اني اقرأ كثيراً من الآثار الفرنسية في مصر ، فاني احب ان اقرأ الآثار الفرنسية في فرنسا ، ونجمل الي اني افهمها في فرنسا على وجهها ، ولا افهمها في مصر كما ينبغي ان تفهم ، كأن البيئة الفرنسية نفسها تخلع على هذه الآثار غشاء يجعلها اشد الى النفس قرباً ، وادنى الى الفهم والتعمق . وانها لقوية جداً هذه اللذة التي اجدها حين اقرأ ما يكون من الخصومة المتصلة بين الاحزاب السياسية ، والخصومة المتصلة بين الادباء واصحاب الفن ، ومن هذه الشروح والتعليقات التي تتناول بها الصحف المختلفة اعمال الحكومة والحياة البرلمانية . وكم اقرن بين ماقرأ في مصر من هذه الآثار وما نقرأ في فرنسا . وكم يمتلي قلبي حزناً حين افرغ من هذه المقارنة . لقد اقرأ الصحيفة الفرنسية فأجد في قراءتها متعة لا حدها ، ثم تصل اليها صحفنا المصرية فلا اكاد امر بما فيها من العنوانات حتى أنصرف عنها انصراف المشمتر ، في الصحف الفرنسية ثروة عقلية ومتاع للنفس والشعور ، وفي خصومتها السياسية لذة ، لان فيها ذكاء حاداً ، وفيها رقة في اللفظ وفيها اصابة في الجدل ، وفيها على هذا كله براءة من السب والشم ولغو الكلام وهراء الحديث :

فأما الفصول الأدبية التي تنشرها هذه الصحف في كل اسبوع فحسبك ان كثيراً منها يستطيع ان يغنيك عن قراءة الكتب التي تتناولها هذه الفصول بالنقد والتفريط . ذلك الى عناية غريبة باستقصاء الاخبار الداخلية والخارجية ، وحرص غريب على ان يكون القارئ ملماً بما يقع في العالم كل يوم في غير مشقة ولا عناء ، ثم حرص على ان يلم القارئ من حين الى حين باتصال الحياة العامة في الأمم ذات الخطر . فانت في هذا الأسبوع تقرأ في جريدة الطان Le temps فصلاً في ناحية من انحاء الحياة الإنجليزية . وانت في الاسبوع الذي يليه تقرأ فصلاً عن المانيا ، ثم فصلاً عن إيطاليا ، ثم فصلاً عن شمالي اوروبا ... على هذا النحو ، كأنما أخذت الصحيفة الفرنسية على نفسها عهداً ان تجعلك تشعر شعوراً قوياً بأنك فرد من افراد الإنسانية ، تحيا مع الإنسانية كلها ، وتشعر مع الإنسانية كلها ، دون ان يخفى عليك من امرها شيء .

وعلى هذا النحو أفهم الصحف وواجبها في عصر الديمقراطية الحديثة ، فلست أظن ان للإنسانية في هذا العصر مثلاً أعلى يعدل حرصها على ان يفهم بعضها بعضاً حق الفهم ، ويتصل بعضها ببعض اشد الاتصال ، وتنداخل فيها الحياة العقلية والشعورية كما تداخلت الحياة الاقتصادية والسياسية ، بحيث لا يمنع اختلاف الأوطان والاجناس والبيئات من ان تشعر الإنسانية بأنها وحدة متشابهة الأجزاء ، متحدة المنسافع ، مضطرة الى التضامن في كل شيء .

فأما الكتب فلا ينقصني عجمي من كثرة ما يصلر منها في فرنسا ، لا اقول في كل سنة ، ولا اقول في كل شهر ، وإنما اقول في كل أسبوع . ويكفي ان تنظر الى الفصل البليوغرافي الذي تنشره الطان مرة في كل اسبوع لتعرف ان الذين يرون ان فرنسا قد اخذت تضعف وتنحط لا يفقهون ما يقولون . ذلك الى أن الطان لا تعنى إلا بطائفة خاصة من الكتب . وهناك صحف اخرى تعنى بألوان اخرى من الكتب . وليس من الغريب ان يوجد في فرنسا من ينتجون هذا الانتاج العقلي العظيم ، وإنما الغريب ان يجسد هؤلاء المنتجون جميعاً قراءاً لما ينتجون ، يمكنونهم من المضي في العمل والتنافس في الإنتاج .

كثيراً ما افكر امام هذا في حياتنا العقلية ، واثناجنا الفني ، وكثيراً ما تحزنني هذه المقارنة ، كما تحزنني المقارنة بين الصحف هنا وهناك .

واذا كانت قراءة الصحف والكتب الفرنسية تلذني وتعجبي
 في فرنسا أكثر مما تلذني وتعجبي في مصر - فالتحدث الى
 الفرنسيين في بلادهم يترك في النفس أثراً يغير كل المغايرة الاثر
 الذي يتركه التحدث الى الفرنسيين في مصر . ولعل هذا الامر
 ليس مقصوراً على الفرنسيين ، فمن المعروف ان كل انسان يتخذ
 لنفسه شخصيتين مختلفتين ؛ احدهما في وطنه حيث يعيش في
 اقل حظ ممكن من الشكلف والنفاق الاجتماعي ، والاخرى في
 الغربة حيث تضطره الغربة نفسها ، وتضطره منافعه المختلفة
 المعقدة الى ان يتخذ لنفسه شخصية اخرى ، تبين الى حد بعيد
 شخصيته الطبيعية ، وحظ التفاق فيها اعظم من حظ الصراحة
 والاخلاص .

على ان الاجانب في مصر يختلفون من هذه الناحية اختلافاً
 عظيماً ؛ فمنهم من يسرف في ازدياء المصري والتعالي عليه ، لا

يتكلف ذلك ، ولايحتمل فيه مشقة ، وانما هو طبيعة له او كالطبيعة ، ومنهم من يسرف في تملق المصري والاسفاف في هذا التملق ، حتى يبعث في النفس شيئاً من الازدراء والاحتقار غريباً.وبين هذين الطرفين يضطرب الاجانب المقيمون في مصر. قليل منهم يظهر نفسه للمصريين كما هي ، وكثير منهم يغشي نفسه بغشاء من النفاق ورقيق او صفيق .

والفرنسي في مصر متكلف ليس صريحاً،وهو لا يرسل نفسه على سجيته. فيه غطرسة ولكنه يخفيها الى حد ما . وفيه تملق ولكنه يحمله بعض الشيء، هو صاحب منفعة قبل اي شيء آخر، ولكنه يجتهد في ان يخفي تأثير هذه المنفعة فيما بينك وبينه من صلة. وهو يراقب نفسه اذا تحدث اليك ، فلا يقول لك الا ما تريد ان يقول، لاما ينبغي ان يقول . فاذا وصلت الى فرنسا واستطعت ان تتصل بالفرنسيين الذين لا يرجونك ولا يخافونك، ولا يقتلدون ان يزوروا مصر او ان تكون لهم فيها منفعة ما، فقد وصلت الى الفرنسي حقاً ، واستطعت ان تتحدث اليه ، وان ترى نفسه كما هي ، دون ان يحول بينك وبينها غشاء ضعيف او كثيف . هذا الفرنسي صريح ، مسرف احياناً في الصراحة ، محب للغلو في كل شيء حين يتكلم لا حين يعمل ، وهو كاف بالتناقض ، واعلان الاحكام المضحكة القريية ، التي تفجؤك وتدهشك . ومن غريب الامر ان الامد بعيد جداً بين الفرنسي حين يتكلم ، والفرنسي حين يعمل.فهو في حياته العملية معتدل ، وهو اقرب الى المحافظة منه الى التطرف حتى حين يكون من

المتطرفين في المذهب السياسي . ولكنه حين يتكلم اشد الناس تطرفاً ، واعظهم إصرافاً في نبذ القديم ، واحد هم سخطاً على حياته اليومية ، وعلى عصره الذي يعيش فيه . اذا سمعت الفرنسي يتحدث عن شؤون السياسة فسأراه ساخطاً اشد السخط على الحكومة والبرلمان ، مغضباً أشد الغضب ، لان شؤون الدولة تمشي على غير نظام ، ولان فرنسا تفقد مركزها الممتاز الذي كان لها بين امم العالم . هو ساخط على الجمهورية ، وهو غير راض في عودة النظام الإمبراطوري او الملكي ، وهو كاره للاشتراكية ، مشفق من الشيوعية ، فاذا سأله عما يريد قال لك كلاماً كثيراً لا تفهم منه ما يريد ، ولكنك تفهم منه انه ساخط غير مطمئن . هو ساخط فيما يقول ، ولكنه في حياته اليومية راض مطمئن ، يؤدي عمله على وجهه في تأفف متصل ، ويؤدي الضرائب في سخط على الحكومة والحزاة .

وسخطه السياسي ليس اعظم من سخطه الأدبي او الفني ، فلن ترى الفرنسي راضياً عن الحياة الادبية في عصره ، ولن تراه راضياً عن الحياة الفنية ، ولن تراه راضياً عن شيء ، ولكنه على ذلك كله يقرأ ويلتهم الكتب التهاماً ، ويزور معارض الفن ، ويشهد التمثيل ، ويسمع الموسيقى ، ويجد في هذا كله لذة ، ولكنه يجد مع ذلك وسيلة الى السخط والتأفف والاشمئزاز . هو قلق دائماً ، طامح دائماً الى مثل أعلى ، يجهله ولا يستطيع ان يحدده ، ولكنه يطلبه مع ذلك ويلج في طلبه ، يطلب دون ان يتخلص من حياته اليومية وحاله الحاضر إلا في مشقة وعسر شديد.

لا اعرف احداً يسخط على الحياة الفرنسية من جميع نواحيها
كالفرنسيين . ولا أعرف احداً يحب الحياة الفرنسية من جميع
نواحيها كالفرنسيين : هم ابغض الناس للحرب ، وهم اسرع
الناس اليها حين يدعون . هم ابغض الناس للجمهورية ، وهم
احرص الناس عليها حين تتعرض للخطر . شعب غريب حقاً لا
يفهمه الاجنبي الا بعد طول الدرس والاختبار ، وبعد ان يعود
نفسه ان الطبيعة الفرنسية الحقيقية تختفي امام طائفة كثيرة كثيفة
من استنار التناقض والاضطراب .

ما ابعد الامل بين هذا الفرنسي الذي نتحدث اليه في فرنسا ،
فلذا هو في الوقت نفسه يسخر من كل شيء ، ويحرص على كل
شيء ، ويناقشك في كل شيء ، ويلهيه اللفظ عن كل شيء ، حتى
يفتن بصوته وعباراته ويتكلم ليسمع نفسه وهو يتكلم لا ليؤدي
اليك شيئاً في نفسه يريد ان يؤديه ويلوذ عنه . وبين هذا الفرنسي
الذي تراه في مصر يتحدث اليك في عناية وحرص ، قد وزن
الفاظه وزناً وقلدها تقديراً وصنع له طائفة من الآراء والمعاني
والخواطر قدر انها هي التي تعجبك وترضيك ، فهو يعرضها
عليك في مهارة ودراية ومكر واسراف في المكر ، وهو في
لفظه مقتصد معتدل لا يكاد يتكلم الا بمقدار لانه يخشى ان يرسل
نفسه على سجيبتها .

عسير عليك ان تحب الفرنسيين في مصر ، وعسير عليك ان
تكره الفرنسيين في فرنسا . وقد سمعت من غير واحد من
اصحابنا الذين يعرفون بلاد الانجليز ان ثقل الانجليزي في البلاد

الاجنية لا يعدله الا ظرف الانجليز في بريطانيا العظمى .
ومن يدري لعل الامر كذلك بالقياس الى الاجانب جميعاً ؟
اما انا فلم اكن قد عرفت الفرنسيين حين زرت فرنسا لأول
مرة ، فلما خالطتهم في بلادهم - وقد اتيت لي هذه المخالطة
كأحسن ما تتاح لأجنبي - احببتهم حباً لا حد له . ثم عرفتهم
بعد ذلك في مصر فلم اكـد اصدق ان هؤلاء الفرنسيين هم مثل
اولئك الذين عرفتهم وراء البحر ، ولذلك تعودت الا اسمع
للفرنسيين في مصر الا بنصف اذني فاذا كنت في بلادهم فانا
اسمع لهم بنفسي كلها .

وفي باريس دور تدخلها فلا تكاد تخرج منها الا بشق النفس
 كأنها تمسكك وتحول بينك وبين الخروج ، وهي تمسكك بالفعل
 فأنت لا تكاد تخطو فيها خطوة حتى تقف ناظراً محققاً ومتأملاً
 مفكراً ، ثم تنتزع نفسك انتزاعاً من هذا المكان الذي وقفت فيه
 فاذا على القرب منه مكان آخر يقفك ويقيدك ، ويضطرك الى
 النظر والتحديق ، والتأمل والتفكير .

وكذلك انت مضطر الى ان تقضي اليوم كله او اكثره في هذه
 الدور ، تنتقل فيها من مكان الى مكان ، ولا تبرحه حتى تضطرك
 حاجتك او المساء الى الخروج .

وهذه الدور نوعان : احدهما يمثل امس القريب او البعيد ،
 والآخر يمثل اليوم وغداً وبعد غد . الاول يمثل امس وما كان

فيه من حوادث وفنون وحياة خصبة من جميع نواحيها وهي المتاحف ، والآخرة يمثل اليوم وغداً وما فيها من لذة وامل ورغبة في اللطف وتهالك على النعيم وهي دور التجارة الكبرى .

هذان القصران المتقاربان اللذان يتسميان باسم واحد، واللذان يتسلطان على النفوس تسلطاً متشابهاً في القوة والبقاء ، والاستئثار بالعقل ، والاستهواء لللب ، يحتكان في الفرنسيين والغرباء كما يشاءان : احدهما متحف اللوفر ، والآخرة متجر اللوفر .

وكلاهما مكتظ طوال النهار بالزائرين والزائرات من كل جنس ومن كل اقليم ، وكلاهما فتنة للزائرين والزائرات ، ولكن فتنة المتحف اهون على الجيوب من فتنة المتجر .

فقصاراك اذا زرت المتحف ان تفتن بما فيه من آيات الفن الفرنسي الاجنبي على اختلافها وتباينها وتفاوتها في مقدار الجمال ونوعه وطبيعته وقيمته ، ولكنك وانق انك لن تجد في هذا المتحف الا لذة بريئة خصبة فيها علم وفيها ارضاء للذوق والشعور .

اما المتجر ففي زيارته لذة قوية ، ولكنها خطيرة شديدة الخطر ، ولا سيما اذا لم تزره وحذك بل زرت مع السيدات . ومهما يكن خطر متجر اللوفر وامثاله على الجيوب والماليات الرفيعة فاني لا اكراه اذا زرت باريس ان ألم بها الملمات طويلة أو قصيرة ، خفيفة أو ثقيلة ، فيها ربح وفيها خسارة ، وفيها لذة ومتاع على كل حال . بل اصبحت - مع الاسف أو مع الرضا - لا افهم المرور بباريس دون المرور باللوفر والبرنتان وجاليري لا فاييت ،

والوقوف عند بعض الاماكن فيها التحير وادفع الى الشراء ،
واستمع في شيء من الراحة واللذة لأحاديث البائعين والبائعات ،
وفنونهم الغريبة الحلوة في اغراء المشتريين ، والعبث بعقولهم
وأذواقهم وجيوبهم معاً .

للناس مذاهب مختلفة فيما يتبعون من الرحلة الى اوروبا او غير اوروبا من البلاد الاجنبية ، فهم جميعاً متفقون او كالمتفقين على أنهم يدعون بلادهم رغبة في الراحة ، والتهاساً للترفيه على النفس ، وتغييراً للبيئة ، وفراراً من الجو الحار الثقيل ، ولكنهم بعد هذا كله يختلفون في تصور الراحة وتغيير البيئة والفرار من الجو ؛ فمنهم من يرى الراحة في الايواء الى ساحل البحر او المحيط ، يقضي نهاره متجرداً او كالمتجرد ، مستلقياً او كالمستلقي على الرمل ، ينغمس في الماء ليخرج منه ، ويخرج منه لينغمس فيه ، وهو في هذه الاطوار المختلفة يستمتع بما يرى من اشخاص مجردين مثله ، ويأخذ يحظه من حرية الظرف والتفكير والدعابة والعبث ، حتى اذا كان الليل لم يستلق على الرمل ، ولم ينغمس في الماء ، وانما اندفع الى الكازينو ، وانغمس في هذه الامواج المنتظمة من الرجال والنساء ، حول موائد اللعب ، او في مسرح

الرقص ، او في المقصف او حول الموسيقى .

وهذان الطوران من اطوار الحياة النهارية واليلية على ساحل
البحر غريبان مختلفان اشد الاختلاف ، ولا سيما في ما يمس
الرجال ؛ فهم عراة او كالعراة بياض النهار ، يظهرون من
اجسامهم ما لا متعة في النظر اليه الا ان يكون احدهم قد صيغ
على صورة أبولون ، وهؤلاء الاشخاص قلة في الرجال. وتراهم
في بعض المدن والسواحل يسرفون في هذا التجرد، كما تراهم في
بعض المدن والسواحل يقتصدون ، لا يقفهم عند حد من ذلك
الا لئلا يلاحظوا شدةها في ملاحظة المستحسين . فاذا كان الليل
فقد سترت اجسامهم كلها ، ودخلوا في ملابسهم اليلية او
السموكنج ، لا يظهرون من اشخاصهم الا اقل مقدار ممكن .
أما النساء فلهن منطق معقول : هن متجردات في النهار على
الساحل ، ومتجردات في الليل اذا اقبلن الى الكازينو ، ولكنهن
لا يظهرن من اجسامهن في الليل ما يظهرن في النهار، انما يظهرن
في النهار نصفاً ، وفي الليل نصفاً آخر : للنهار الاعجاز ، وليل
الصدور.

وعلى هذا النحو تستطيع ان تفهم هذه الصورة المضحكة التي
نشرها « الجورنال » ذات يوم تمثل عاملاً من عمال المحطات
قد جلس الى نافذته يبيع تذاكر السفر ، واقبلت عليه امرأة
قبيحة المنظر شوهاء تشتري تذكرة ، فهو مفتون بهذا الوجه
القبيح المشوه لانه منذ اول الفصل لا يرى وجوهاً ، انما يرى
أعجازاً ... !

ومن الناس من يرى الراحة في الصعود الى جبل من الجبال ،
يختلف ارتفاعه في الجو بمقدار ما يسمح له الطيب ، وهناك
يقضي نهاره متنقلا من مكان الى مكان ، صاعداً هابطاً ، أو
مستريحاً في غابة أو حديقة ، او مندفعاً في الكازينو بياض اليوم
وسواد الليل ، مستمتعاً بما في البلاد الجبلية من مناظر مختلفة ،
واضواء متباينة ، الا ما تعرض عليه الحسان من اصناف الزينات
وضروب الخلاعة ، فان كان من الذين يحبون السيارات ويكلفون
بهذا الحس الغريب الذي يجده الناس في السرعة فنهاره في السيارة ،
وليله في الكازينو ، بين الرقص والعزف واللعب ، ورأسه دائر
ليلاً ونهاراً ، حتى اذا انتصف الليل أو مضى ثلثاه آوى الى
مريره فاستراح .

ومن الناس من يكتفي بمدينة من المدن ذات الحظ العظيم من
الحضارة ، فيقضي نهاره فيها وليله كما كان يقضيها في مصر ،
الا انه هنا يستمتع بحظ من الحرية لا يستمتع به عادة في مصر ،
يصبح فيمضي الى القهوة ، وما يزال فيها حتى يدعوه الغداء ،
ثم يمسي فيمضي الى القهوة ، وما يزال فيها حتى يدعوه العشاء ،
ثم يفرغ من عشائه ويمضي الى حانة او ملعب ، ويقضي ليله
أو شطراً غير قليل من ليله في لذة قلما تخلو من إثم ، وقلما تخلو
من اسراف في النفقة ، وقلما تخلو من إساءة الى العقل والجسم
والاعصاب عامة ، والكرامة الإنسانية في كثير من الاحيان .
ومنهم من يلتمس الراحة في مدن العيون والبنابيع ، لأن

الاطباء قد فرضوا عليه ذلك ، او لانه يجد في البيئة التي تشبه بيئة السواحل لذة تصرفه عن غير هذه المدن من مواضع الراحة ، فهو يستحم ويخالط المستحمين والمستحات في غدوهم ورواحهم ، وفي نشاطهم وخمودهم وراحتهم ، وهو يرقص ويشهد الراقصين والراقصات ، ويلعب او يشهد اللاعبين واللاعبات ، وحظه من اللذة البريئة او الآتمة يختلف باختلاف مزاجه ومقدرته وثروته .

اما أنا فلست افهم الراحة على نحو من هذه الانحاء ، وقد وصفت لك فهمي لباريس وحياتي فيها . واذا تركت باريس فقلما افكر في سواحل البحر ، لأنني أكره البحر واجسد في جواره ألماً ومشقة لا احتملها الا ان اضطر الى ذلك اضطراراً . وقد اراد الله ان يلائم في ذلك بين مزاج زوجي وابني ومزاجي ، فنحن جميعاً نكره البحر ولا نطمئن اليه . ونحن نكره مدن الاستحمام ايضاً ، لان الاطباء لم يفرضوها علينا الى الآن ، ولأننا لا نكاد نذوق هذه اللذة التي يذوقها الناس حين يظهرون من اشخاصهم ما لا ينبغي ان يظهروا ، وحين يرون من غيرهم ما لا ينبغي ان يروا . فأحب ضروب الراحة البنا هو الايواء الى جبل معتدل الارتفاع ، نتخير فيه فندقاً مريحاً معتدلاً رخيصاً كفندقنا في باريس ، فنأوي اليه ، لا نبتغي الا طعاماً ملائماً ، وغابة قريبة نقضي فيها النهار او اكثره ، وفرشاً وثيراً نقضي فيه الليل كله . ولسنا من عشاق السيارات ، وانما حب معتدل

للحركة والمشي الى ان نصل الى مرتفع شاهق ، فاذا نفوسنا
تنازعنا الى ان نبلغ قمته . فتكلف في ذلك من المشقة ما نتكلف ،
ثم نعود متعبين مكدودين ، قد اعتزمنا ان نرتاح من الحركة
يوماً او يومين . على ان احد ابني قد كلفنا في هذه السنة مشقة
لم نتعود مثلها ، فهو على انه لم يتجاوز السابعة مشغوف بالصعود
والهبوط ، مفتون بالعيون والغدران والجداول والمياه المنحدرة ،
يلتمسها حيثما كانت ، وحيثما وجدت . وقد اخذ يقرأ ، فلا
يصل الى مدينة او قرية حتى يلتمس الدليل وينظر فيه ؛ ويحفظ
اسماء الجداول والعيون والينابيع ، وما يزال يلح علينا بعد ذلك
في التماس ما حفظ حتى نضطر الى الاستجابة له . واذا نحن في
الطريق نلتمس جدولاً او عيناً او منحدرأ من الماء قد حفظه هذا
الطفل ؛ وابى الا ان يراه ، فنتعب ويتعب ، ولكننا لا نكاد
نبلغ الغاية حتى نرى في فرحه وابتهاجه ونشاطه وانغماسه في هذه
الطبيعة ما يرد اليها ما فقدنا من نشاط . ويذهب عنا ما وجدنا
من ألم ومشقة .

وانا اشهد اني اجد لذة قوية في هذا النحو من الراحة في الجبل
في اول الامر ، ولكني لا اكاد اقضي في هذه الحياة اياماً حتى
احس مللاً لاحد له ، وسأماً لا سبيل الى احتماله ، الا ان يعينني
عليه كتاب أقرأ فيه ، او فصل امليه . ولو اني خيرت لما قضيت
في مثل هذه المواطن الا الايام القصصار ، ولعدت الى باريس أستأنف
هذه الحياة التي وصفتها ، والتي لا ينقضي حبي لها واعجابي بها .
وليس في ذلك شيء من الغرابة ؛ فأنا لا املك الشرط الاساسي

الذي يحجب الى الناس الجبل والبحر وما فيها من لذة بريئة .
وكل ما اجدته من ذلك إنما هي هذه الراحة الطبيعية التي اتلقاها
مضطراً من الهواء واختلاف الاجواء . فاما هذه اللذة الفنية فيجدها
من يبصر الطبيعة في اشكالها المختلفة ، ومناظرها المتباينة ،
والوانها البديعة ، التي تتباين بتباين الاضواء ، وموقعها على
الأرض أول النهار وآخره وإبانه ، ثم هذه المناظر البديعة التي
تكون في الجبال حين تتفاوت قممها ارتفاعاً وانخفاضاً ، وقد
غطى بعضها بالجليد ، وتوج بعضها بالغابات ، ووقعت عليها
أشكال النجوم والكواكب ، وارتفعت من بينها أضواء المدن
والقرى . كل هذه المناظر لا حظ لي منها ، لا أستطيع ان أراها
ولا ان ادوقها ، وإنما يقص منها على الشيء إثر الشيء فأحقق
بعضه ، وأعجز عن تحقيق بعضه الآخر . واذا كنت راضي
النفس مطمئناً فقد أسمع ذلك مغتبطاً ببعضه ، غير مكترث لبعضه
الآخر . فأما ان كنت مضطرب النفس مهيء الخلق — وكثيراً
ما يعرض لي هذا — فلعلي لا اسمع ما اسمع من الوصف دون ان
أشعر بألم يريد ان يكون شديداً ، لولا اني اخذت نفسي منذسني
طوال بهذا البيت البدوي القديم :

لا بد مما ليس منه بد

فأنا لا آسى على ما فات ، ولا اكلف بطلب ما لا سبيل اليه ،
فأنا إذن من عشاق المدن ومن عشاق باريس بنوع خاص ،
فيها اجد هذه اللذة التي قسم لي ان آخذ منها بأكبر حظ ممكن ،

وهي لذة العقل والشعور . فليس غريباً الا اترك باريس الا
كارهاً ، وكيف أتركها راضياً ، وانا اعلم اني ما دمت في
باريس فأنا أستطيع ان ارضي من عقلي وقلبي وشعوري أية
ناحية شئت .

ونطوف بعد ذلك عشرة ايام في الالزاس ، متنقلين بين مدنها وقراها ، متجولين في وهادها ورباها ، نزور ما فيها من آثار الماضي البعيد والقريب ، ونشهد ما فيها من مظاهر الحياة الجديدة المضطربة .

وفي الالزاس متاع للعيون ، كما ان في الالزاس متاعاً للعقول ، ففيها كثير من آثار القرون الوسطى لا تزال قائمة ماثلة ، تعطيك من فن هذا العصر صوراً مختلفة ، ولكن الالزاس في هذه الايام تعني من يزورها عناية خاصة ؛ لمكانها بين الفرنسيين والالمانيين ، والمسألة التي تفرض عليك فرضاً حين تتصل بالفرنسيين ، وتنغمس في حياتهم القومية ، هي ان تعرف احق ان الالزاس اقليم فرنسي وان اهله يحبون فرنسا كما يحبها الفرنسيون ، ام ذلك لون من ألوان الجهاد السياسي بين هذين الشعبين المتخاصمين

منذ اقدم العصور التاريخية ؟

اما اذا قرأت الصحف الفرنسية فالالزاس قطعة من فرنسا اغتصبها العدو ثم استردتها فرنسا المنتصرة مندسين ، والفرنسيون يختلفون فيما بينهم حين يفكرون في الصلة بين فرنسا وبين هذه القطعة التي ردت اليها ، فمنهم من يريد ان تمحي الفروق كلها بين الالزاس وبقيه الاقاليم الفرنسية ، فيكون التشريع واحداً والنظام واحداً ، وتخضع الالزاس لكل ما تخضع له الاقاليم الفرنسية ، من نظام في السياسة والادارة والمالية والدين والتعليم . هؤلاء هم المتطرفون . ومنهم المعتدلون الذين يريدون هذا كله ، ولكن شيئاً فشيئاً ، وقليلًا قليلًا ؛ لانهم يقدرّون اثر الاحتلال الالماني في الالزاس ، ويعلمون ان انتقال الالزاس من النظام الالماني الى النظام الفرنسي الحالى فجأة — لا يمكن ان يتفق دون ان يستلزم اضطراباً وفساداً بعيدى المدى .

والالزاسيون انفسهم — فيما يظهر — ليسوا اقل اختلافاً من الفرنسيين ؛ فمنهم المسرفون في بفض النظام الفرنسي ، ومنهم المسرفون في حب هذا النظام . والناس جميعاً يعلمون ما تلاقيه فرنسا من الصعوبات المعقدة في الملاءمة بين الالزاس وبين النظام الفرنسي الحالى .

ولكن الاجنبى الذى يزور الالزاس بعد ان يكون قد زار فرنسا لا يستطيع ان يتخلص من اثر جديد تركه هذه الزيارة في نفسه ؛ فهو لا يسمع الفرنسية او لا يكاد يسمعها في الالزاس

وانما يسمع الالمانية يتحدثها الرجال والنساء في اعمالهم ومرافقهم
كما يتحدثها الاطفال في لعبهم . وهو لا يسمع الفرنسية الا حين
يتكلم الالزاسي الى الفرنسي أو الى الاجنبي الذي لا يتكلم الالمانية .
فلذا تكلم الالزاسي اللغة الفرنسية فهي فرنسية خاطئة عظيمة
مشوهة كفرنسية الالمان .

والاجنبي اذا اراد ان يقرأ الصحف الالزاسية وجد اكثرها
الماني ، فاذا شهد الصلاة في كنائس الالزاسيين فاللغة التي
تستعمل مع اللاتينية هي الالمانية . ونظام الحياة في الالزاس اقرب
الى النظام الألماني منه الى النظام الفرنسي . طعام الالزاسيين
الماني ، وشرابهم الماني ، فهم يؤثرون الجمعة على النيذ ، كما انهم
يؤثرون الشوكروت Choucroute على غيره من الوان الطعام
المألوفة في فرنسا .

أهم فرنسيون كما يدعي الفرنسيون ؟ أهم ألمان يون كما يدعي
الالمانيون ؟ ما ارى انهم من اولئك ولا من هؤلاء . وانما ارى
انهم الازاسيون ، ولو استطاعوا لطلبوا لانفسهم ما يطلبه كثير
من الشعوب الاوروبية الصغيرة من الحياة المستقلة بين هذين
الشعبين العظيمين المختصمين . وهم الى ان يتاح لهم طلب
الاستقلال التام يجاهدون الآن في سبيل الاستقلال الداخلي ،
ويتكفون في ذلك مشقة وهولاً ليس اقل منها ما تتكلفه فرنسا
من المشقة والعناء .

ومهما يكن من امر الالزاسيين والالزاس من اثار فرنسا أو

المانيا او ايثار الحياة المستقلة فان الاقامة في الالزاس للذيذة حلوة ، فيها دعة وراحة ، واكل كثير ، وشراب غزير ، ورياضات ممتعة . ومهما انس فلن انسى كلف ابني الصغير بزيارة العمارات الألزاسية والتصعيد في بروجها ، والعناية بوصفها وتعديدها ، ثم برسمها وتصويرها . واظنه سيبلغ ما يشاء الله ان يبلغ من السن قبل ان ينسى كاتدرائية ستراسبورج ، التي اصبحت عنده الان مقياسا للكاتدرائيات جميعاً . بفضل هذه الكاتدرائية ظهر عند هذا الطفل في السابعة من عمره ميل غريب قوي الى زيارة الآثار زيارة ان لم تكن فنية فهي تشبه الفنية . ونحن الآن لا ننزل بلداً ولا نصل الى قرية حتى يلحّ هذا الطفل في زيارة بيعتها او كاتدرائيتها ، حتى اذا أتم هذه الزيارة اخذ يقيس البيعة او الكاتدرائية بكاتدرائية ستراسبورج طولاً وعرضاً وصعوداً في الجو وجمالاً فنياً .

ومهما تكن الخواطر التي خطرت لنا جميعاً اثناء رحلتنا الطويلة هذه ، ومهما تكن العواطف التي اثارها في نفوسنا هذه الرحلة ، ومهما يكن ما لقينا فيها من خير وشر ، ومن رضا وسخط — فلن يعدل هذا كله ما حفظته نفس هذا الطفل الصغير من هذه الرحلة ، فقد كلف فيها بثلاثة اشياء ، لن ينقضي يوم حتى يحدثك فيها ، ويطلب ويثقل : العيون والبنابيع ، يقيس بعضها الى بعض ويوازن بعضها ببعض ، غزارة وارتفاعاً وانحدار ماء ، والبيع والعمارات ، يقيسها كلها الى كاتدرائية ستراسبورج ، ثم

قطر السكك الحديدية ، بحصيتها وبحضي ما تقطع من الآسار والمسافات ، وبحضي ما تقف عنده ولا تقف من المحطات : يحفظ اسماها ان استطاع ، فان اعياء ذلك او فاته اخترع لها الاسماء اختراعاً . ولعله يحفظ الاسم على غير وجهه ، ثم يعيده عليك في شكل بديع مضحك . وهو لا يكتفي بحفظ القطارات وآمادها ومحطاتها ولكنه يقلدها ، فهو قطار منذ يبق من نومه الى ان ينغمس في النوم اول الليل ؛ يقلد القطار في حركته وصوته ؛ يقف ويندفع ؛ ثم يقف ويعلن المحطات التي يقف عندها ، والتي يقصد اليها متى سافر . وسواء اردنا ام لم نرد فنحن مسافرون مسافراً متصلاً ، لانه قطار ونحن في القطار ، فهو يسير ويقف بنا . وانه ليدهش اشد الدهش حين ننسى اننا مسافرون ، وانه قد انتهى بنا الى « جنيف » او الى محطة « الشمس الحديدية » او الى محطة « للروز » والى ما يلهمه خياله من البلاد والمحطات . كانت للذبة مثيرة للعواطف مرضية للنفس هذه الرحلة بين هذين الطفلين ، يعيش احدهما في الخيال ، وتفتح نفس اخته للحياة ، فاذا هي ترى الاشياء على وجهها او تريد ان تراها كذلك ؛ واذا هي تنفق جهداً لاحد له ثلاثم بين الحياة كما تراها الآن وبين ما حفظت نفسها الناشئة من خواطر الطفولة وصورها واحاديثها .

يستطيع السفر ان يكون شاقاً متعباً ، وتستطيع الحياة ان تكون فيه مرة ممضة ، وتستطيع الهموم ان تملأ النفس وتنغص

عليها ما يعترضها من اللذات ، ويستطيع العمل أن يكون مجهداً
مضنياً ، فلن يثبت هذا كله أمام هاتين الابتسامتين الحلوتين :
ابتسامة الطفل الذي لا يزال يحلم ، وابتسامة الصبية التي أخذت
تفريق .

وفي الالزاس اذا زرتها مسافات لا بد ان تقطع ومعاهد لا
منلوحة عن ان تزار ، وإلا فلم تزر الالزاس ولم تستمتع بما فيها
من جمال مادي ومعنوي . لا بد من ان تأخذ هذه السيارات
الضخام فتذهب الى الهوفالد Howald وتتغدى فيه ثم تعود الى
السيارة وتذهب الى سانت اوديل Sainte Adille وتزور الدير
ثم تعود الى ستراسبورج من طريق آخر ، وانت في ذهابك
وليا بك تمر بقري وترى مناظر وتزور كنائس ، ولكن الشيء
الوحيد الذي اثر في نفسي من هذه الاشياء كلها انما هو هذا الدير
الذي وصلنا اليه نحو الساعة الثالثة بعد الظهر .

دير قائم على قمة شاهقة في الجو ، لا تكاد تتمصل بالسهل الا
من هذه الطريق التي تقطعها بك السيارة ، فأما من جميع نواحيها
الاخرى فهي قائمة شاهقة مشرفة على السهل ، منفصلة عنه
انفصالا تاماً بحيث تعجب كيف اختير هذا المكان لاقامة هذا

الدير ، ثم لا تلبث ان تشعر بهذه الوحدة التي يستشعرها المقيّات في هذا الدير فتملاً نفوسهن رهبة وجلالاً ، ثم تمكنهن من الخلو الى ضيائهن وقمعها ومحاسبتها ، وما هي الا ان يصلن من هذه الوحدة امام الضمير الى شيء من الايمان فيه تصوف وزهد ، وعكوف على النفوس ، وطموح الى الكمال الديني الاعلى :
والشعب الالزاسي من اشد الشعوب الفرنسية تديناً وایماناً ، واحرصها على العادات والسنن الموروثة ، وكان انفصاله من فرنسا سبباً في بقاء هذه العادات والسنن قوية شديدة الاثر في نفسه ، حتى اذا عادت الالزاس الى فرنسا لم تخضع ولم تفكر فرنسا في اخضاعها للتشريع الديني الفرنسي ، ولا للفصل بين الكنيسة والدولة ، وما ينشأ عنه من الآثار في حياة الشعب والقسيسين والرهبان وفي التعليم ايضاً .

وكان اشد الشعوب الفرنسية تديناً وایماناً قبل الحرب ، وابعدهم في المحافظة ، واحرصهم عليها اهل بريطانيا . فلما كانت الحرب وردت الالزاس اصبح لرجال الكنيسة معقلان منيعان : بريطانيا والالزاس .

واذكر اني شهدت في بريطانيا منذ سنين حفلاً دينياً اجتمع له الشعب رجالاً ونساء وشباناً واطفالاً ، واقبلوا الى كنيستهم بعد ان طافوا المدينة يتغنون بأغاني دينية ووطنية محلية . فكان لهذا المشهد في نفسي اثر قوي تركه هذا الغناء ، تترج فيه الاصوات الحلوة ، اصوات النساء والاطفال بهذه الاصوات الغلاظ الشداد ، اصوات الرجال والشبان ، وهذه المعاني الساذجة البسيطة التي

تقدس الله والوطن الخاص في غير تكاف ولا اسراف .
ثم شهدت في الالزاس حين وصلت الى هذا الدير حقلاً كهذا
الحقل البريطاني ؛ فقد اجتمع فيه الحجاج من اهل هذا الاقليم
رجالاً ونساء شباناً واطفالاً ، واقبلوا الى ديرهم يتغنون باللاتينية
مرة وبالألمانية مرة اخرى وبالفرنسية قليلاً جداً ، يقدسون ربهم
وولينهم ووطنهم الصغير . حتى اذا طافوا بالدير وانتهوا الى الكنيسة
وقفوا خاشعين وقام القسيس باسمهم يتوسل الى القديسة في لغة
المانية قوية عذبة ، فتوسل واطال التوسل . وما كنت تشك وانت
تراه وتسمعه وترى خشوع الشعب من حوله في ان نفوس هذا
الشعب كله متصلة به ، تنطق بلسانه وتحقق مع قلبه حين يحقق
رغبة ورهبة ، حتى اذا فرغ من صلاته الألمانية استأنفها بالفرنسية
لا لأن القديسة في حاجة الى ان تترجم لها الصلاة ، ولكن لان
الشعب نفسه في حاجة الى ان يفهم الصلاة التي يقوم بها عنه القسيس
ليصلبها معه ، وليكون شعوره ملائماً لشعور القسيس . وكثرة
الالزاسيين يفهمون الألمانية او قل كل الالزاسيين ، ولكن بينهم
الآن فرنسيين هاجروا الى الالزاس ، وبينهم اولئك الالزاسيون
الذين آثروا فرنسا على المانيا ، فتركوا وطنهم بعد الهزيمة ثم
عادوا اليه او عاد اليه ابناءؤهم بعد الانتصار . وللسياسة الجديدة
حكمها ؛ ففرنسا مضطرة الى ان تقبل الألمانية لغة للصلاة ،
ولكنها مضطرة ايضاً الى ان تفرض الفرنسية لغة للصلاة . وللدين
الآن في الالزاس لغتان حديثتان الى اللغة اللاتينية المقدسة ، وللتعليم
كذلك لغتان . وسيظل الصراع قوياً بين الفرنسية والألمانية حتى

يستطيع الزمن والسياسة ان ينصرا احدهما على الاخرى .
الفرق عظيم جداً بين هذين الحقلين اللذين شهدتهما في بريطانيا
والالزاس يمثلان نفس شعبين مؤمنين حقاً ، وبين هذه الحفلات
التي تستطيع ان تشهدها في لورد Lourdes اذا اقبل الصيف من
كل عام ؛ فحفلات لورد لا تمثل ايماناً ولا اخلاصاً في حب الله ،
وانما هي الشعوذة من ناحية ، والنفاق من ناحية اخرى ، وضعف
المرضى وتهالكهم على طلب الشفاء من ناحية ثانية . الدين في
لورد تجارة رابحة . ولكنه في بريطانيا والالزاس مرآة صادقة لقلوب
مؤمنة خاشعة ، تحفق بذكر الله والقديسين والنومل اليهم .

ولم يكن التأثير الذي ملك عليّ نفسي حين تركت الالزاس وقاربت الحدود الفرنسية الألمانية القديمة وشهدنا الخنادق التي كان يكمن فيها الفرنسيون والألمان يضمرون بعضهم لبعض فيها الموت وضروب الاهلاك ، ويتحصن بعضهم من بعض فيها بكل صنوف الوقاية والوانها — بأقل من ذلك التأثير الذي وجدته أمام دير سانت أوديل .

في الدير شعب خاشع امام الله راغب اليه ، يتوسل اليه بالتقديسين والاولياء ، يلتمس منه الامن والسعة والعافية والرخاء والتشيت . وحول هذه الخنادق العميقة المتقاربة وما يمتد بينهما من الاسلاك الشائكة فضاء واسع ، فيه صمت عميق مهيب لا يقطعه الا حفيف الاغصان والاوراق حين يهزها النسيم الهاديء ، والا تصويت الطير من حين الى حين ... وانت تتمثل المأساة المنكرة التي كانت في هذا المكان طوال سنين الحرب ، والتي سفكت

فيها دماء وأزهقت فيها نفوس ، ولقي فيها الإنسان من الإنسان
ضروباً من العذاب لا سبيل الى ان توصف ولا الى ان يتمثلها
الناس وهم آمنون .

نعم ، وانت تسمع في هذا المكان انين الجرحى وحشرجة
صدر الموتى ، وتسمع الى هذا الجند يتكلفون السلوة والعزاء ،
يشجع بعضهم بعضاً ، ويواسي بعضهم بعضاً ويضحكون من
تعسهم وشقائهم . انت تسمع هذا كله فيخفق قلبك وتتقطع
نفسك اسى ، ولكنك لا تستطيع ان تمد الطرف من هذه الناحية
او تلك حتى ترى هنا قبور الفرنسيين وهناك قبور الألمانين ::
ومن عسى ان يكون في هذه القبور ؟ واي امل طوته هذه
القبور ؟ ولم عسى ان تكون عسدد القلوب التي صدعتها هذه
القبور ؟ ولم عسى ان يكون النفوس التي اتصلت بهذه الناحية
الصغيرة من انحاء هذا الميدان المنكر ميدان الحرب ؟ نفوس
الامهات والآباء ، نفوس البنات والابناء ، نفوس الأزواج
والصديقات . وانظر فليس مصدر هذا الالم الذي يملك نفسك
هذه القبور المبعثرة وما تشتمل عليه من اشلاء ليس الى تحديد
ولا الى تعيينها من سبيل . ليس مصدر هذا الالم ما ترى من
قبور وتسمع فيها وحوها من انين وحشرجة واستغاثة ، ليس
هذا كله مصدر هذا الالم فحسب ، وانما الطبيعة نفسها تبعث
في نفسك ألماً الى الم ، وتغشى هذا كله بغشاء منكر مخيف :
انظر الى هذه الاشجار الملتوية والجنود المحترقة . انظر الى
ما حولك كله وتمثله قبل الحرب فقد كان نضراً ، وكان بديعاً ،

وكانت فيه للناس لذة وبهجة ، وكانت فيه للنفوس راحة
وانس ، فلما عدا الناس على الناس وقتل بعضهم بعضاً لقيت
الطبيعة نفسها شر هذا العدوان ، فحالت نضرتها وذهبت بهجتها ،
واستحالت هذه الجنة الى جهنم . وقد عاد السلم بين الناس الآن ،
وانصلت بينهم الالفة والمودة ، ونسي بعضهم آثام بعض . ولكن
هذه القبور ما زالت قائمة ، وهذه الخنادق ما زالت عميقة ،
وهذه الاسلاك الشائكة ما زالت ممتدة ... وهذه الاشجار ما زالت
كما تراها . منها الملقوي ، ومنها الملقى ، ومنها القائم لم يبق منه
الا جذعه . وما احسب ان هذا كله يعين على ان يستقر السلم بين
الالمانيين والفرنسيين .

نعم كانت ساعة رهيبة مؤلة هذه التي وقفناها عند هذا
المشهد ، فلم تستطع عيون ان تحبس دمعها ، ولم تستطع قلوب ان
تستقر في اماكنها ، ولم تستطع السنة ان تمسك عن لعن الحرب
وعشاقها ..

ثم نمضي فاذا الحياة على قرب من هذا المشهد قد اخذت
تستأنف نشاطها وقوتها ، فهذه اشجار الغابات تستبق في الجو
كأنها تريد ان تبلغ السماء ، وهذه الاطيوار ترجح وترنج على
الاغصان ، قد اسكرها النسيم العذب الذي يحمل اليها ما في هذه
الطبيعة الواسعة المطلقة من ارج وضوء وخصب ونعيم ، وهذه
الاعشاب تكسو الارض بألوان مختلفة من الزينة ، وتنجم بينها
ازهار ضئيلة بديعة الاشكال والالوان ، وهذه الاجراس تسمعها
من بعيد قد ملأت الفضاء واخذته على سمعك ، وهي اجراس

القطعان ترتع مريحة فيما يكسو هذه الارض من عشب ، وهذا
النسيم الخفيف الفاتر يداعب وجهك ويحمل اليك الدعة والهدوء ،
ويجيب اليك الحياة والحركة. ومع ذلك فكم شهدت هذه الطبيعة
من هول ، وماذا عسى ان تشهد غداً او بعد غد من الهول .

ثم نصل الى حيث كنا نريد ان نصل من هذه المدينة الهادئة
 الواسعة مدينة جيرار مير Gerardmer المستقرة في جبال الفوج
 Vosges على بحيرة صغيرة بديعة هادئة ، فاذا جو كأحسن ما
 عرفت من الاجواء ، واذا هدوء لم اشهده قط ، واذا مقام ملائم
 للراحة حقاً ، وملائم للعمل حقاً ، اولا هذه الجبال القرية التي
 تدعوك وتكرهك على ان تدع الراحة وتدع العمل ، وتمضي فيها
 صاعداً هابطاً ، واقفاً من حين الى حين تنظر وتسمع ، وتستشق
 هذا النسيم الخفيف النقي .

ولقد طفت في هذه الانحاء غير قليل ، ولكني اشهد ماخرجت
 الا كارهاً وبعد خصومات عنيفة كانت بين زوجي وبيني . اريد
 ان اخلو الى كتابي ، وتريد ان انشط واتحرك وآخذ من التروض
 بحظ ، واشهد ماخرجت كارهاً الا عدت راضياً مبتهجاً شديد
 الحزن ؛ لان ما لدي من العمل لا يسمح لي باستئناف مثل هذه
 الرياضات التي كنت اجد فيها لذة وراحة وجمالاً لا تشبهها لذة

ولا راحة ولا جبال .

ولست انسى يوماً خرجنا فيه بعد الظهر الى مجتمع من الماء ،
فأقننا عليه حيناً ثم مضينا ننتبع الغدير في غابة كثيفة لا تستوي
فيها الطريق ولا تعادل ، ولا تحترقها اشعة الشمس الا على مشقة
وجهد ، قد فرشت ارضها ببساط كثيف من العشب فاخذنا
ننتبع شاطئ الغدير في هدوء ودعة . وكنت منصرفاً عن كان معي
وعما كان من حولي الى هذا الغدير اسمع خريره وابتهج به ، وما هي
الا دقائق حتى انسبت كل شيء غيره ، وحتى اقتنعت بأنني لا اسمع
خريير الماء ، وانما اسمع نجوى المحبين . لا اقصد الى خيال ولا الى
شعر ، وانما اذكر ما احسست وما وجدت كما احسسته وكما وجدته .
نعم كنت مقتنعاً بأنني اسمع في هذا الماء المنحدر حديث المحبين ،
وكان هذا الحديث مختلفاً باختلاف انحدار الماء قوة وضعفاً : هنا
ينحدر الماء في قوة وينزل على جماعة من الصخور قائمة ، فتسمع
لانحداره اصواتاً مختلفة مرتفعة في اعتدال ، وما هي الا ان تتمثل
الحبيبين في ثورة ولوعة واضطراب وعتب وخصام . ثم تمضي فاذا
مجري الغدير قد لان واعتدل ، واذا الماء يمشي عليه هيناً ليناً ،
واذا خريره هاديء رقيق ، واذا انت تتمثل هؤلاء المحبين وقد
هدأت ثورتهم ، وبردت لوعتهم ، وانصرفوا عن الخصومة والعتاب
الى هذا النحو من الرضا ، المضطرب بين السخط والعفو ، والذي
تدنو فيه النفس من النفس دون ان تجرؤ النفس على ان تتصل
بالنفس ، والذي تسمع فيه الفاظ تمازج حلاوتها المرارة ، وتتخلل
لينها الشدة .

ثم نمضي واذا مجرى الغدير قد استقام او كاد ، وخلا من
الصخور والاحجار الا هذه الحصى الصغار الدقاق ، واذا ماء الغدير
قد رقّ وقل وصفا ، واذا هو يمشي مشية خفيفة بطيئة شديدة
البطء ، واذا انت لا تسمع من المحين خصومة ولا عتاباً ، بل
لا تسمع منهم لفظاً ولا كلاماً ، وانما هي قبْلُ هادئة حلوة ،
قد امتزجت فيها النفوس والقلوب ، ودنا المحبون من الفناء .
ثم استقام طريق الغدير استقامة تامة ، وجرى ماؤه على ارض
رخوة سهلة ، فلست تسمع شيئاً معها تحاول . فقد هدا كل شيء ،
واستقر كل شيء في نصابه ، واخذت نفسي تفيق وتخلص
قليلاً قليلاً من هذا الحلم السخيف . واذا انا اسمع ابني من حولي
يختصمان : اي اطوار الغدير خير ؟ احسين يضطرب ويهذر ؟
أم حين يهدأ ويستقر ؟

واذكر لزوجي ما وجدت من لذة وانس بهذا الغدير فتتصر
في غضب وسخرية قائلة : وكم تستطيع ان تجد من لذة وانس
لو ارحت نفسك وارحتنا من « الضائير » و « فلسفة ليبتر » ..
ولكنك تعلمين يا صاحبي ان ليس الى هذا من سبيل .

ايثها النفس أجمل جزعاً ان الذي تحلرين قد وقعا
وما كنت احذر الموت على ثروت، وما كنت افكر في ان
بينه وبين الموت سبباً، وانما كنت كغري من الناس اقدر ان
هذه الحياة القوية التي تنبعث منها حياة قوية الى امة بأسرها
سيمتد امامها الدهر، وستصل بها الأيام حتى تنتهي من غايتها
الى ما كانت تريد .

وكذلك نحن نعظنا الايام فلا نتعظ ، وتعلمنا الحوادث فلا
نتعلم ، وينبئنا كل شيء بأن حياتنا غرور ، وآمالنا عبث ،
وامانينا لعب ، فنأبى الا ان نؤمن لانفسنا بطول المدة وبعد الامد
وقوة الامل وصدق الرجاء .

نؤمن لانفسنا ولا صدقاتنا بهذا كله ، فاذا فاجأتنا الكارثة
ودهمنا الخطب وجمنا ، واخذنا الدهول ، وانقطع منا كل
سبب ، فلم ندر ماذا نصنع ولا كيف نقول .
وكذلك كنت حين وقع علي هذا النبأ في طرف من اطراف

فرنسا ، وقد تهيأت للعمل شديد النشاط ، مجتمع القوى ،
فما هي الا ان اسمع ثروت ولفظ الموت حتى تنقطع الصلة بيني
وبين من حولي وما حولي ، وحتى يأخذني شيء كالانغماء العقلي ،
لا أفكر ، ولا اعني ، ولا اشعر ، وانما هما لفظان يترددان في
نفسي تردداً متصلاً : لفظ ثروت ، ولفظ الموت .

ولقد تركته في مصر كأحسن ما عرفته قوة ونشاطاً ، وامثلاً
بالحياة وابتناسمتها ، واملاً فيها ، وازدراء لآحداثها وكوارثها .
ولقد كنت اقدر أن اراه في مصر بعد الصيف كما تركته قبل
الصيف ، فما عرفته قط الا كذلك ممثلاً بالحياة ، مبتسماً لها ،
شديد الامل في غد ، قوي الازدراء لآلام امس .

وهذه الصحف تنقل إلي الآن انه مات في باريس .

واذن فلن ألقاه ولن اراه ولن اسمع له ولن اتحدث اليه ولن
اقصد الى بيته اذا انحدرت الشمس في المساء او ارتفعت الشمس
في الضحى ، ولن اجلس اليه ولن اقضي معه هذه الساعات الحلوة
التي كانت ترفه علي ونحبب الي الحياة من حين الى حين .

انا غارق في هذه الحسرة ، والناس من حولي يقرءون هذا
الكتاب ويردون قراءته . يكذبونه مرة ، ويصدقونه مرة اخرى ،
ويلتمسون العلل والاسباب لتكذيبه وتصديقه ، ويرون لو استطاعوا
ان اشترك معهم في هذا التكذيب والتصديق ، وفي هذا النقد
والتحليل ، ولكن ما انا وهذا اللغو ؟ لقد وصل الى نفسي اسم
ثروت ولفظ الموت . اوليس هذا يكفي لان اعود الى رشدي
واخلص من غرور هذه الحياة ، واتبين مرة اخرى انما الحياة

الدنيا لعب ولهو وزينة لا غناء فيها ، ولا ثقة بها ، ولا معتمد عليها .

لقد تبينت ذلك ولم أتجاوز الصبا ، ولقد تبينت ذلك مرة ومرة ومرة ، وكنت كلما تبينته شديد الاستسلام له ، شديد الزهد في الحياة والنفور منها . امضي في ذلك اسابيع ثم اشهرًا ثم تعمل الحياة عملها ، ويستأنف الغرور بالدهر وما فيه ، بسط سلطانه على نفسي ، فأفكر في الحياة العاملة ، ثم ابتسم لها ثم اندفع اليها ، وما ازال حتى تفاجأني كارثة اخرى ، فأتبين الغرور وازهد في العيش .

وعلى هذا النحو اراد الله ان تكون حياتنا جميعاً صراعاً بين العبرة والفتنة ، واراد الله ان نكون نحن موضوع هذا الصراع . هذا اسم ثروت يتردد في نفسي ، ويتردد معه لفظ الموت ، وتعجز نفسي عن ان تلاثم بين هذين اللفظين ، وعن ان تحقق هذه الجملة التي تنبئها بأن ثروت قد مات .

ومهما انكر ومهما اعجز عن الملاءمة والتحقيق ، ومهما اترده بين الشك واليقين ، ومهما اضطرب بين التصديق والتكذيب ، فهذا اللفظان يترددان في نفسي تردداً متصلاً ، يقطعها تقطيعاً ويفرقها تفريقاً . وهذه الساعات يمضي بعضها اثر بعض ، وهذه صحف المساء قد جاءت بعد صحف الصباح تصدق الخبر وتثبت ، وترثي ثروت وتؤبى ، فليس من شك اذاً في ان القضاء قد لام بين ثروت وبين الموت ، وحقق ما لا تستطيع نفسي ان تصدقه او تحققه .

وتضيق بي نفسي ، وتضيق بي غرفة الفندق الذي انا فيه ،
واخرج هائماً لا ادري الى اين اذهب ، ولا اعرف ماذا اريد ،
وانا امشي على ساحل البحر لا اكاد اسمع اصطخاب امواجه ،
ولا اكاد احس هذه الريح التي تعصف من حولي ، لاني مغرق
فيما انا فيه من التفكير في ثروت وفي الموت ، ومن تعويد نفسي
ان تواجه الحقيقة وثبت لها ، وتعرف ان ثروت قد مات .

وليس من اليسير مواجهة هذه الحقائق اذا كان لهذا الرجل
في نفسك مكانة الشقيق الوفي ، الذي انصلت اسبابك باسبابه ،
وبلوته في الخير والشر ، وانست اليه حتى اصبح الانس اليه
جزءاً من حياتك .

نعم ليس هذا يسيراً ، وانما نقف امامه موقف من يشهد
الجرّاح بترعضواً من اعضائه دون ان تستطيع له وقفاً ، او يجد
سبيلاً الى اتقاء الالم والفرار منه .

لله قلوب الاصدقاء ونفوسهم حين يفجعها الموت في الاصدقاء !
هي ازهار نضرة غضة تستقبل الحياة والضوء في جمال وبهجة :
ولكن هذه اليد القاسية يد القضاء تمتد اليها من حين الى حين في
غير رفيق ولا لين ، فتنتزع منها ورقة ثم ورقة ... وهي كلما
انتزعت منها بعض اوراقها انكمشت وتضاءلت ، وسرى فيها
الذبول والفناء ، حيث كان يسرى فيها الرواء والماء ، وما تزال
يد القدر تتبعها فتنتزع اوراقها ، وما يزال الذبول يتمشى فيها
حتى تجف وتبيس ، وتصبح هشياً مستعداً لأن تدروه الريح متى
عصفت به ، وهي عاصفة به من غير شك حين تدنو هذه الساعة

التي لا يفلت منها حي ، ولا ينجو منها انسان .

نعم لله قلوب الاصدقاء ونفوسهم ! فهي على هذا كله قبور حية . وهل تظن انا نفقد اصدقاءنا حقاً ؟ وهل تظن انا نحيا بعدهم ونستطيع ان نعيش بدونهم حقاً ؟ كلا ، إنما نفقد الاتصال بأشخاصهم التي تتحرك وتفكر كما تفكر ، ونحيا كما نحيا . نفقد العمل معهم ، ولكننا لا نفقد جوارهم ، والاتصال بنفوسهم . ان الذي يدفن بعد الموت ويحتويه الثرى ليس شيئاً الى جانب هذا الشخص القوي الحي الذي تدفنه في قلبك ، وتحفظ به في حياتك الداخلية الخاصة ، تناجيه ، وتفكر فيه ، وتقدم اليه من الوان المودة والتحيات من آن الى آن ما يلائم مكانته في نفسك ؟ نعم ليس هذا الجسم الذي يواريه التراب ، والذي يستحيل الى تراب - شيئاً الى هذه النفس التي توارىها نفسك ، والتي تحيا معك لا تفارقك او تفارقك الحياة .

لله قلوب الاصدقاء ونفوسهم ، فهي قبور حية ، ولكنها لا تحتوي الموتى ، وإنما تحتوي نفوساً حية ، لها حسها وشعورها ، ولها عقلها وتفكيرها .

لقد فقدت فلاناً وفلاناً من الاصدقاء ، فأقسم ما فقدت منهم الا اشخاصهم المادية ، ولكن نفوسهم وصورهم المعنوية ملازمة ، اراها في كل يوم يقظان ونائم ، وانا جيتها في كل يوم . وإذا كان للموت أثر في هذه النفوس والصور فلأنما هو تصفيتها وتخليصها من اعراض الحياة الدنيا وادراتها ، وتحويلها الى صور مطهرة نقية ، ليس فيها الا الخير والبر والمودة والوفاء :

الآن أستطيع في مشقة ان ألأثم بين اسم ثروت ولفظ الموت ،
وان احقق في نفسي هذه الجملة « ألا ان ثروت قد مات » . نعم
لن القاه ولن اراه ولن اسمع له ولن اتحدث اليه ؛ لانه في نفسي ،
فهو معي ابداً ، وانا اسمع له ابدا ، واتحدث اليه ابدا ، ولا اجد
الى الانصراف عن حديثه ووجهه ومودته سبيلا .

وانا أستطيع ان اصعد الى هذه السفينة التي اعرف انها تقل
رفاته في شيء من الجزع وفي شيء من الغبطة ايضا ؛ فقد اتيج
لي ان اشيع شخصه تشييعاً فيه بعض الطول ، وان اقطع معه من آماد
الحياة مسافة غير قصيرة . اتيج لي ان اعبر البحر معه ، فانا جزع
لاني لا أستطيع ان اسمع صوته العذب ، ولا ان اعني كلامه
العذب ، ولا ان اسبح نفسه الحلوة ، ولا ان اتذوق اخلاقه
الرضية ، وانا مع ذلك مغتبط لاني ارافق شخصه على كل
حال ، ولاني احس ان هذه السفينة تصل بيني وبين ما بقي منه .
غريب هذا الشعور بالجزع تخالطه الغبطة ، وباليأس تمازجه
الطمأنينة ! غريب هذا الشعور الذي لم يفارقي طوال ايام السفينة
ولياليها ! وكثيرة هذه الخواطر التي كانت تزدهم على نفسي
في النهار والليل فتقطع الصلة بيني وبين الحياة ومن فيها اكثر
الوقت .

نعم ، لقد مات ثروت ... والناس يقولون ان موته كارثة
آلمت مصر كثيراً فأفقدتها كثيراً . وانا اعلم ذلك واقدره .
والناس يتحدثون فيما عمل ثروت لمصر . وانا اعرف ذلك
واقدره .

والناس يتحدثون ايضاً في مصير مصر بعد ثروت ، وانا افكر في ذلك احياناً واجزع له .ولكني أثّر مسرف في الاثرة . وانا ازعم ان الاصدقاء جميعاً اثرون مسرفون في الاثرة . فانا لا افكر كثيراً في ثروت السيامي ، ولا في ثروت الزعيم ، وانما افكر دائماً في ثروت الصديق . فخسارة الاصدقاء لا سبيل الى تعويضها ، وفقد الاصدقاء لا عزاء عنه ، بينما خسارة السياميين والزعماء شيء منها يكن شديد الوقع قالى العزاء عنه سبيل .تعيش الامم قبل الزعماء ، وتعيش الامم بعد الزعماء . وقلما تقدر الامم زعماءها ، وقلما تعرف لهم حقهم عليها .وهل قدرت مصر ثروت حياً ؟ وهل عرفت مصر لثروت حقه حياً ؟ ولكن الصديق لا يستطيع ان يعيش حقاً اذا فقد الصديق . هو لا يفقد منفعة ولا غرضاً من اغراض الحياة ، وانما يفقد جزءاً من نفسه وقطعة من قلبه .

انا ارثي لمصر من رزئها في ثروت،ولكني اشد رثاء لنفسي ولا لاصدقاء ثروت من رزئنا فيه . وهل مات ثروت حقاً ؟ هل فقدته مصر ؟ كلا . فلن تراه يذهب ويجيء ، ولن تراه يدافع الانجليز عن حقها ، ولن تراه ينود عن حريتها الداخلية،ولكن ثروت كغيره من عظماء الرجال حقاً لم يموت ولا يمكن ان يموت ، لا لانه آثاره باقية خالدة ، بل لانه كان صاحب رأي وفكرة ، ولانه صاحب نفس وروح ،ولانه استطاع ان يقنع برأيه وفكرته قوماً هم خلفاؤه،واستطاع ان يثبت فيهم نفسه وروحه،فسيعملون كما كان يعمل ، وسيجدون كما كان يجد ،وسيفهمون كما كان

يضحى ، وسيشقون كما كان يشقى ، وسيجزون على حسن البلاء
بالعقوق ، كما كان يجزى على حسن البلاء بالعقوق ، وسيتمون
الاستقلال الذي كسبه ثروت ، وسيتبنون الدستور الذي
وضعه ثروت .

فثروت لم يمت ، وثروت لا يمكن ان يموت اذا نظرت اليه
من حيث هو سياسي ، ومن حيث هو زعيم . ولكن اسرة ثروت
واصدقاء ثروت هم الذين فقدوه ، وهم احق الناس بالثناء ،
وهم الذين لن يجدوا الى العزاء عنه سيلا ؛ في نفوسهم صورته
المطهرة ماثلة قوية ، تلازمهم ولا تفارقهم ، ولكنها صورته
وليست شخصه . في قلوبهم ذكره قوية حلوة شديدة الاثر
متمكنة في مكانها ، ولكنها الذكرى ليس غير .

سيسمعون صوته ، ولكن في نفوسهم . سيرون شخصه ،
ولكن في نفوسهم . سيتحدثون اليه . سيحاورونه ، ولكن في
نفوسهم .

في هذا بعض العزاء ، ولكن هذا ليس كل شيء . لله ابن
ثروت ، يتردد في السفينة بين امه البائسة قد تفتقر قلبها وتصدعت
نفسها ، وبين مواطنيه المكتئبين لا يعرفون كيف يلقونه ، ولا
يعرفون كيف يهونون عليه الخطب ، لانهم لا يعرفون كيف
يهونون الخطب على انفسهم .

وهو بين تلك وهؤلاء فرق النفس ، مفطور القلب مغفود
اللسان ، لا يأنس الى شيء ، ولا يأنس اليه شيء .

ولله زوج ثروت ، سجين في غرفتها على السفينة ، ومعها

رفيقتها البرة ، لا تستطيع لها تسلية ولا تعزية ، منحدره الدمع حتى لا تجد في عينها دمعاً ، مؤرقة الليل لا تأوي الى مضجع ، منغصة النهار لا تطمئن الى شيء ولا الى احد .

ولله اصدقاء ثروت في السفينة ، قد عجزوا عن كل شيء حتى عن تعزية انفسهم ، وهم يذهبون ويجيئون بين جماعات المسافرين الذين لا يعرفون ان جلال الموت يرفرف على هذه السفينة ، فهم فيما هم فيه من هو ولعب ، واغتياب بالحياة وابتسام لها ، واعجاب بالطبيعة ، واستماع للموسيقى ، وفي ضروب السمر والوان المجون . واصدقاء ثروت يرون هذا ويتمثلون الحياة كما هي ، لاهية عن يقبل عليها او ينصرف عنها ، ماضية في طريقها ، لا تحفل بهذا ولا بذاك ، فلا تزيدهم هذه العبرة الا زهدا في الحياة وازدراء لها ، ولكنهم على هذا ضجرون محنتون ، يودون لو استطاعوا ان يسكتوا انغام هذه الموسيقى ، وان يفرضوا على الناس الهدوء والرفق ، في حركاتهم واحاديثهم ، حتى لا يحسوا الا جلال الموت على السفينة ، وجلال البحر من حولها .

والسفينة تمضي وهذه الخواطر تزدحم في نفسي : ونحن ندنو من مصر ، ونحن نتحدث الى انفسنا عما اعدت مصر لاستقبال ثروت وقد تركها حيا قويا نشيطاً فعاد اليها بجثة هامدة ...

لله اسرة ثروت حين رست السفينة ، وحين صعدت هي الى هذه السفينة مضناة مخلوعة الأفئدة ، مفرقة بين رفات من مات

وبين هذه الزوج الثكلى .

نعم ، والله اهل السفينة جميعاً حين عرفوا من الامر ما لم يكونوا يعرفون ، وحين ازدحموا على ظهر السفينة ينظرون في دهش وحزن ، وان منهم لمن يأسف على ابتسامة ، وان منهم لمن يلوم نفسه لانه استمتع بالحياة والموت مُرْفَرَفٌ على السفينة ، وفي السفينة اشقياء بالحياة . وانهم جميعاً لينظرون وقد اخذتهم الهيبة ، وتسلبت على نفوسهم رهبة الموت ومقام الميت .

ولله هذه الطفلة لم تعد العاشرة من عمرها ، وقد نظرت فرأت نعش ثروت محمولا بهبط من السفينة ؛ فأجهشت بالبكاء دون ان تعرف لم تبكي ومن تبكي ؟ .

ولله امها ومسافرة اخرى اذ تنصرفان اليها تهلثان من روعها ، وتلهيانها عن ان تتبع هذا المنظر المؤلم .

ثم لله مصر كلها ، اذ تستقبل عظيمها لا لتحفل به ، ولا لتلجأ إليه ، ولا لتتخذة رداء تنقي به الشر والكيد ، ولكن لتشيعة الى حيث اراد الله ان يستقر الى آخر الدهر .

وها نحن اولاء يا بني قد أبنا الى مصر ، واستقر بنا المقام
في منزلنا الصغير الهادئ من هليوبوليس ، فلم تكذب بلغ الدار
حتى هشت لها ، واندفعت اليها فرحاً مرحاً ، يملؤك الجذل ،
وتشرق في وجهك البهجة والسرور ، وتأبى ان تصعد معنا
الى حيث تزيل عنك وعشاء هذا السفر الطويل حتى تدور في
الحديقة دورة او دورتين ، لترى هل نما الشجر واورق ، وهل
ازدهى الزهر وتألق منذ فارقت هذه الدار ، حتى اذا بلغت منه
ذلك ما تريد ، فوجدت شيئاً ، وفقدت اشياء ، واحسست
رضاً ، واحسست سخطاً — صعدت فلم تلتفت الينا ، ولم تسأل
عما نحن فيه ، وانما اسرعت الى حجرتك لترى هذا الدب الذي
رافقك في رحلتك ، فعبر معك البحر ، وطوف معك في آفاق
فرنسا ، وزار معك بلاد الانجليز ، وعاد معك الى مصر . وانت
لا تشك في انه قد وجد من اللذة في هذه الرحلة مثل ما وجدت ،
وفي انه قد سعد بما رأى من عيون ونبابع ، وبما زار من متاحف

وعمارات ، وشقي بهذا العناء الذي يلقاه المسافر اذا طال به
السفر والحث عليه آلامه . وانت اب رحيم شفيق تعرف منه
الجهد ، وترى عليه علامات الاعياء، وتريد ان ترفق به وتريح
قبل ان ترفق بنفسك وتريحها .

اتذكر يوم ذهبنا الى فونتنبلو لنزور القصر وكنت قد
اصطحبت دبك هذا ، فلما بلغنا المحطة تقدمت اليك امك في ان
تدعه مع ما كان معنا من متاع ، حتى لا يشق عليك ، ولا
يصرفك عن جمال القصر وما فيه ، فاذعنت كارهاً ، ولكنك
اظهرت تجلداً واحتمالاً لهذا الفراق ، حتى اذا مضينا وبعدنا عن
المحطة اجهشت بالبكاء واغرقت فيه . فلما سألتك عما يبكيك
اجبت ان اللب لن يرى القصر ، فعدنا ادراجنا وزار اللب معك
هذا الاثر العظيم .

ها انت ذا قد اضجعتني في سريرك ، واحطته بما يسع قلبك
الصغير القوي من حب وبر وحنان ، ثم اقبلت علينا تشاركنا فيما
نحن فيه من عمل وحديث .

انت راض عن هذه الرحلة ، مغتبط بما لقيت فيها من خير ،
وقد نسيت ما احتملت فيها من مشقة ، وستنسى مع الزمن ما
سرك وارضاك كما نسيت الآن ما ساءك واحزنسك . ذلك ان
نفسك ستتمو ، وان صحفاً جديدة غنية شديدة الغنى ، مختلفة
كثيرة الاختلاف – ستضاف الى هذه الصحف القليلة الساذجة .
التي سطرتها الحياة في ضميرك النقي الطاهر .

سينسبك الصبا احداث الطفولة ، وسينسبك الشباب احداث

الصبا ، وسيلهيك جد الحياة عن عيب الشباب . وستحاول يومئذ
كما نحاول نحن الآن ان تلتمس من نعيم حياتك الاولى ما يهوه
عليك احتمال حياة الرجال ، فتسغفك الذاكرة حيناً وتعجز عن
اسعافك في اكثر الاحيان . هنالك خذ هذه الصحف التي
اهديها اليك ، واقرأها وانظر فيها ، فستذكر انك عبرت
البحر وزرت باريس وفونشبلو ، وطوفت في الالزاس ، واقمت
في جيرارمير ، والتمست العيون والينابيع في جبال الفوج ،
ونزرت نيسن واقمت فيها . وكنت احب ان تذكرك هذه
الصحف انك عبرت الماتش وزرت لوندرة ونعمت بالحياة في
اكسفورد ، وان ابتهاجك بما رأيت في بلاد الانجليز لم يكن اقل
من ابتهاجك بما رأيت في فرنسا . ولكنك ستعلم حين تقرأ هذه
الفصول ان موت ثروت هو الذي حال بيني وبين تسجيل زيارتك
هذه لبلاد الانجليز . وكنت احب ان تكون هذه الفصول كلها
فرحاً ومرحاً ، وابتهاجاً بالحياة وابتسامة لها ، لتكون صورة
صادقة لنفسك الحلوة في السابعة من عمرك ، تنظر فيها اذا بلغت
سن الجدد والجهد والحزن ، فتجد فيها من الراحة ما يجد المسافر
في الصحراء حين ينتهي به السفر الى واحة خضراء فيها شجر
وماء ، وفيها ظل ظليل ونسيم حلو . ولكني يا بني لم استطع ان
اصور نفسك ، وإنما صورت نفسي أنا ، وما هي بالشئ الذي
يحسن ان بهدي ، وما هي بالشئ الذي يجد الناظر فيه راحة
أو نعيماً .

وانا على ذلك كله واثق بانك ستقرأ هذه الفصول يوم تستطيع

قراءتها ، وستحبها لاني واثق بأنك تحبني . اذكرك يوم كنا
نعبت في جرار مير وكنت احدثك بحديث انكرته لغرابته
واغراقه في الخيال ، فأبيت ان تصدقه او تطمئن اليه ، فالحقت
عليك في ذلك فلم يزدك الا الحاح الا اغراقاً في الانكار ، وخاصمتك
حينئذ ، واعلنت اليك اني لن اداعبك منذ اليوم ولن اتحدث
اليك الا جاداً . وانت صلب الرأي كأبيك ، لا تدعن
الوعيد ، ولا تخيفك النذير . فاعرضت عنك واعرضت عني ،
وقضينا في ذلك يوماً وبعض يوم ، لم اقل لك شيئاً ولم
تقل لي شيئاً . ولكن اختك اقبلت محزونة فأنبأت امها
بأنك ضيق بإعراضي عنك ، لا تنشط للعب لاني لا اداعبك ولا
ادعوك باسمك الذي كنا نحب ان ندعوك به . فتوسطت حينئذ
امك فاصلحت بيننا ، واعادت الى ثغرك الابتسام ، واعادتك
الى ما كنت نحب من لعب ومرح .

سل امك يا بني فستنبئك بأنني لم اكن اقل منك شقاء بهذا
الاعراض ، وبأنني كنت اشكو اليها بينما كنت تشكو انت الى
اختك ، اذكرك هذه القصة ؟ انها تصور ما بينك وبينني من حب ،
قد علمك ان تقبل مني كلما كنت اتحدث به اليك بما فيه من
خيال وما فيه من احالة . لقد تعودت الا تراني الا باسمك لك ،
ولكنك مستعمو وترى ان ابتسام الآباء لابنائهم الصغار كثيراً ما
يختفي اكتئاباً وحزناً . وسرى في هذه الفصول نفسي يا بني
فعلم ان ما كنت امنحك من ابتسام ورضاً ، وما كنت آتي معك
من ضروب اللعب والدعابة — لم يكن خالصاً كابتسامتك ورضاك ،

ولا صفواً كلعبك ودعابتك . وإنما كان يخفي من ورائه حزناً
واكتئاباً ما كان لك ان تراهما صبيّاً ، وما ينبغي لك ان تجهلها
رجلاً . وما اسعد الاب حين يثق بان ابنه يحبه محزوناً مظلم النفس ؛
كما يحبه مسروراً مشرق الفؤاد !!

هلم يا بني لنطوي الان حديث السفر والصيف ، ولنستقبل
الخريف واحاديثه ، فان للخريف حديثاً آخر ، سيتحدث اليك
عن المدرسة والاساتذة والرفاق ، وسيتحدث الى ابيك عن
الجامعة والطلاب والزملاء والادب العربي القديم .

سبتمبر سنة ١٩٢٨

•Y- 11 - 224

صدر حديثاً

- النكبة والبناء للدكتور وليد قحايي ٦٠٠
- معالم الحياة العربية الجديدة للدكتور محمد منيف الرزاز ٤٠٠
- ازمة التمدن العربي للأستاذ محمد وهي ٢٠٠
- ضجة في صف الفلسفة للدكتور جورج حنا ١٢٥
- النزعة الاشتراكية في الاسلام للأستاذ أنور الخطيب ٣٠٠
- فتى غفار (شعر) للأستاذ سليمان العيسى ١٥٠
- حرب العصابات ترجمة الأستاذ لويس الحاج ١٠٠
- دراسات عربية للدكتور نبيه امين فارس ١٢٥
- منهاج الاسلام في الحكم للأستاذ محمد اسد ٢٠٠
- أي غد ؟ للدكتور قسطنطين زريق ٢٠٠
- أحاديث للدكتور طه حسين ٢٠٠
- هكذا يضع الشرق الأوسط لألفرد ليلينثال ٣٠٠
- ضد التعذيب في الجزائر للأستاذ بيير سيمون ١٠٠
- الأوضاع التشريعية في البلدان العربية
- المسخ للدكتور صبحي المحمصاني
- (من سلسلة كنوز القصص
- مجرمو ١٩٥٧ للكاتبين البريطانيين فوت وجو
- العقدة اللبنانية للدكتور جورج حنا
- أزيلوا إسرائيل للكاتبة الاميركية ايلين بي